الفصل الثالث

سياسة سلطنة الكَجرات خارج شبه القارة الهندية

- أولاً: سياسة سلطنة الكَجرات في مواجهة الغزو البرتغالي
- ثانياً: سياسة سلطنة الكَجرات تجاه مكة المكرمة
- ثالثاً: سياسة سلطنة الكَجرات تجاه الدولة الصفوية

سياسة سلطنة الكَجرات خارج شبه القارة الهندية

لقد ارتبطت الكَجرات بعلاقات خارجية وثيقة مع كثير من الدول خارج شبه القارة الهندية، ومن أهم هذه الدول سلطنة المماليك في مصر والشام والدولة العثمانية، وقد اشتركت معهما لمواجهة الخطر البرتغالي في المحيط الهندي، وكان لسلطنة الكَجرات علاقات وطيدة مع الحرمين الشريفين ولا سيما "مكة" المكرمة، كما استقبلت سفارات من العديد من الدول من أهمهم الدولة الصفوية.

أولاً: سياسة سلطنة الكَجرات في مواجهة الغزو البرتغالي

قبل الحديث عن سياسة سلطنة الكَجرات تجاه الغزو البرتغالي لأراضيها ، يجب أن ننوه أولاً بكيفية دخول البرتغاليين لمياه المحيط الهندي وما ترتب علي ذلك من احتكاكهم بالدول الهندية الواقعة علي المحيط الهندي وسلطنة المماليك في مصر والشام، والدولة العثمانية التي حلت محلها بعد ذلك.

دخول البرتغاليين المحيط الهندي:

لقد كثر استخدام الطريق البحري[1] المار بالمحيط الهندي ثم البحر الأحمر ثم مصر كطريق رئيسي للتجارة بين الشرق والغرب، فقد تعطل كل من طريق الخليج الفارسي والطريق البري منذ الغزو المغولي لإيران والعراق في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، وقد استغل سلاطين المماليك في مصر والشام هذه الفرصة لفرض ضرائب باهظة علي تجارة الشرق المارة بأرضهم والتي تزايد الطلب عليها في الأسواق الأوربية[2].

وكانت حركة الملاحة في مياه المحيط الهندي حتي العقد الأخير من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي قاصرة علي العرب والهنود والصينيين، وذلك حتي اقتحم

(1) هذا الطريق البحري كان يبدأ من الصين وينتهي عند البحر الأحمر، ماراً بساحل الهند الغربي فساحل عمان ثم ساحل اليمن فالبحر الأحمر. علي حسين السليمان الناصر: النشاط التجاري في شبه الجزيرة العربية أواخر العصور الوسطي (1250: 1517م)، ص134، ط1، مكتبة الأنجلو المصرية.

(2) عبد الرحمن الرافعي، سعيد عبد الفتاح عاشور: مصر في العصور الوسطي من الفتح العربي حتي الغزو العثماني، ص526، 527، النهضة العربية، 1994م. علي حسين السليمان الناصر: النشاط التجاري في شبه الجزيرة العربية أواخر العصور الوسطي ، ص56، 57.

البرتغاليون المحيط الهندي علي أثر نجاحهم في الالتفاف حول رأس الرجاء الصالح، وكان الهدف الرئيسي من حركة الكشوف الجغرافية هو إيجاد طريق مباشر إلي الهند للابتعاد عن احتكار المماليك لتجارة التوابل وتحكمهم في أسعارها ورفع أثمانها لمبالغ باهظة، وقد بدأت حركة الكشوف الجغرافية البرتغالية باكتشاف رائد حركة الكشوف الجغرافية الأوربية الأمير "هنري الملاح بن الملك جواو الأول" (797هـ / 1394م: 865هـ / 1460م) للساحل الغربي لأفريقيا في أوائل القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي[1]، وبذلك فتح الطريق للملاح البرتغالي "برثلميو دياز" (ت 906هـ / 1500م) الذي نجح في سنة 893هـ / 1487م في اكتشاف الجزء الأسفل من الساحل الغربي لأفريقيا حتي الكاب.

وأكمل "فاسكو دي جاما" عمل "دياز" في الوصول إلي الهند، فقد خرج "فاسكو دي جاما" بسفنه من "لشبونه" عام 903هـ / 1497م بتكليف من ملك البرتغال "عمانويل الأول" (874هـ / 1469م: 928هـ / 1521م) لاكتشاف طريق الهند[2]، فاجتاز "فاسكو دي جاما" السواحل الغربية لأفريقيا حتي وصل إلي طريق رأس الرجاء الصالح، وكانت سفنهم قبل ذلك تتحطم علي صخور رأس الرجاء الصالح، ولكن "فاسكو دي جاما" استطاع أن يجتاز هذه العقبة ويتحول بسفنه إلي الشمال ويسير محاذياً لساحل أفريقيا الشرقي[3]

(1)أنور عبد العليم : الملاحة وعلوم البحار عند العرب، ص121، الكويت،عالم المعرفة، 1399هـ / 1979م. عبد الرحمن الرافعي، سعيد عبد الفتاح عاشور: مصر في العصور الوسطي ، ص257. لويس فيليب باريتو: فجر عصر جديد، ص6، مجلة رسالة، ع335، إبريل 1989م. هايد ، ف: تاريخ التجارة في الشرق الأدني في العصور الوسطي،ج4، ص3، عربه عن الترجمة الفرنسية أحمد رضا محمد رضا، مراجعة وتقديم عز الدين فودة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1994م.

Panikar: India and Indian Ocean,London,1945,p37,38.

(2) أنور عبد العليم: البحار والمحيطات، ص13، الدار القومية للطباعة والنشر، 1964م. ديوجو كاو: رواد اكتشاف المحيطات، ص8، 9، مجلة رسالة، ع335، إبريل 1989م. عبد الرحمن الرافعي، سعيد عبد الفتاح عاشور مصر في العصور الوسطي ، ص257. محي الدين الألوائي: مابلا، ص52، ثقافة الهند، مج 6، ع3، سبتمبر 1955م. هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدني في العصور الوسطي ، ج4، ص4، 5.

(3) النهروالي، قطب الدين محمد بن أحمد المكي: البرق اليماني في الفتح العثماني، ص 18، 19، ط1، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1387هـ / 1967م. يحي بن الحسين بن القاسم بن محمد بن علي (1035هـ / 1625م: 1100م: 1689م): غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، القسم الثاني، ص630، 631، تحقيق سعيد عاشور، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1968م.

، باسطاً نفوذه علي الموانئ التي كان يلقاها في طريقه، منشأً في أكثرها الحصون والقلاع مع ترك حاميات فيها من رجاله، وظل كذلك حتي وصل إلي ميناء "ملندي" علي الساحل الشرقي لإفريقيا الذي كان تحت الحكم العربي الإسلامي، ومن هناك استطاع الوصول إلي "كاليكوت[1]" علي ساحل المليبار[2] سنة 904هـ / مايو 1498م[3].

وترجع خطورة دخول البرتغاليين للمياه الهندية إلي إنهم لم يقتصروا علي مزاولة نشاطهم التجاري مع الموانئ الهندية، ولكن ملك البرتغال نظر إلي المحيط الهندي كملكية خاصة له، وقد تعضد موقفه ببيان بابا الفاتيكان بمنح البرتغاليين الحق الشرعي للأراضي التي ينجحون في اكتشافها ووضع أيديهم عليها، وبذلك عمل البرتغاليون علي القضاء علي أي سلطة منافسة لهم في المحيط الهندي، وذلك عن طريق السيطرة العسكرية، وقد وضع البرتغاليون نصب أعينهم هذا المخطط الحربي، ولذلك كانت سفن "فاسكو دي جاما" مشحونة بالأسلحة التي كان من أهمها عشرون مدفعاً شهرها "فاسكو دي جاما" في وجه "السامري" حاكم "كاليكوت" عندما رفض التعامل معه تجارياً[4] بتحريض من التجار المسلمين الذين

---

(1) "كاليكوت" هي قصبة بلاد المليبار الواقعة في ولاية مدراس بالهند، تقع عند دائرة عرض إحدى عشرة درجة وخمس عشرة دقيقة شمالاً ، وخط طول خمس وسبعون درجة وسبع وأربعون دقيقة شرقاً، وهي من أكبر موانئ الهند.* وتعد "كاليكوت" من الموانئ الهامة الواقعة علي الساحل الغربي للهند، ويقصدها التجار من الصين وجاوة وسرنديب واليمن وإيران والحبشة ومصر**.

** ابن بطوطة: تحفة النظار، ص376. شوقي عبد الباقي: تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية، ص188، 189. *معين الدين الندوي: معجم الأمكنة، ص40.

(2) يمثل ساحل المليبار الجزء الجنوبي من ساحل غرب الهند ، ويمتد من ميناء "كولم ملي" في الشمال إلي جزيرة "سرنديب" أو "سيلان" في الجنوب. دائرة المعرف الإسلامية، ج6، ص310.

(3) أنور عبد العليم: البحار والمحيطات، ص13. محي الدين الألوائي: مابلا، ص53. ديوجو كاو: رواد استكشاف المحيطات، ص9.

Munshi,K.M.: The Delhi Sultante (The History and Culture of The Indian People),Bombay,p421.

Panikar: India and Indian Ocean,p38.

(4) Panikar: OP.Cit,p38,39.

كانوا يمثلون قوة تجارية يعتد بها في "كاليكوت" وغيرها من موانئ السواحل الهندية، وعلي الرغم من ذلك نجح البرتغاليون في إقامة صداقات قوية مع الحكام والتجار الهنود المنافسين لحاكم "كاليكوت[1]".

وبعد أن قضي "دي جاما" فترة في "كاليكوت" نجح خلالها في التعرف علي الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية للمنطقة عاد إلي البرتغال حيث وصل "لشبونة" سنة 905هـ / 1499م[2]، وبعد هذه الحملة الناجحة قام ملك البرتغال "عمانويل الأول" بإرسال حملة ثانية علي الهند في سنة 906هـ / 1500م بقيادة "بيدرو آلفاريز كابرال" (872هـ / 1467م: 927هـ / 1520م)، وقد ضمت هذه الحملة ألف وخمسمائة رجل وثلاث وثلاثين سفينة، لم يصل منهم إلا ست فقط، وقد وضع "كابرال" أسس السياسة البرتغالية في المحيط الهندي التي سار عليها من خلفه، وهي فرض السيادة البرتغالية علي المحيط الهندي ، وعدم السماح لغيرهم بالإبحار فيه بدون إذنهم، أي أنه أصبح حكراً لهم.

وبالطبع فقد واجه هذا الإدعاء محاربة القوي البحرية السابقة في المحيط الهندي والتي يأتي التجار المسلمون وحلفاؤهم السامريون. حكام "كاليكوت"، في مقدمتها، وبعد رفض السامري التعامل مع "كابرال" استخدم الأخير قوته الغاشمة ضدهم، وقذف المدينة بالمدافع بوحشية شديدة، واتجه بعد ذلك للاستقرار في "كوشين[3]"،التي كان حاكمها علي عداء مع السامري، ونجحوا في توثيق علاقتهم معه[4].

---

(1) Munshi,K.M.: OP.Cit, p421,422.

(2) زين الدين بن عبد العزيز المعبري: تحفة المجاهدين في بعض أخبار البرتغاليين، ص26، 78، حققه وقدم له وعلق عليه أمين توفيق الطيبي ط1، كلية الدعوة الإسلامية ، طرابلس، 1397هـ / 1987م. محي الدين الألوائي: مابلا ، ص53.

(3) تقع "كوشين" أو "كشي" في الطرف الجنوبي من ساحل مليبار إلي الجنوب من "كاليكوت"، وهي من أشهر مدن المليبار في تجارة الفلفل. زين الدين المعبري: تحفة المجاهدين ، ص28.

(4) زين الدين المعبري: المصدر نفسه ، ص27، 78. محي الدين الألوائي: مابلا ، ص53، 54. هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدني في العصور الوسطي، ج4، ص7، 8. ديوجو كاو: رواد استكشاف المحيطات، ص9.

Munshi,K.M.: The Delhi Sultante,p422..

Panikar: India and Indian Ocean,p40.

وقام السامري بمحاربة ملك "كوشين" سنة 907هـ / 1501م حتي فر من مدينته، ولكنه ما لبث أن عاد إليها تحت حماية البرتغاليين، وحفظاً لصنيعهم سمح لهم بإقامة قلعة لهم في "كوشين"، فكانت أول قلعة لهم في الهند، ولم يكن البرتغاليون قبل ذلك يمتلكون أرضا في الهند، وبذلك أصبح لهم مركزاً علي الساحل الهندي(1)، وقد أدرك البرتغاليون عدم صعوبة فرض سيطرتهم علي المحيط الهندي ولكن مع استعدادهم بقوات أكبر، وبالفعل أرسل ملك البرتغال "دام مانويل" حملة أقوي بقيادة "فاسكو دي جاما" لإرساء سيطرة البرتغال علي المحيط الهندي، مزوداً بقوة من خمس عشرة سفينة وثمانمائة جندي مدربين، وبوصول هذه القوة إلي ساحل المليبار وجدوا الساموريين مستعدين للقائهم بأسطول تحت قيادة الأمير "قاسم" بمساعدة من التاجر الكبير "خواجه عنبر".

وقد قام "قاسم" بمهاجمة أسطول البرتغال في "كوشين" وألحق به هزيمة ساحقة سنة 909هـ / 1503م، ولكنه للأسف لم يستغل هذا النصر في تدمير الأسطول البرتغالي، ولم يهنأ الساموريون بهذا النصر فقد وصل للبرتغاليين إمدادات من أربع عشرة سفينة بقيادة القائد المحنك "لوبو سوريز" الذي فاجأ أسطول السامري بالهجوم، وألحق به هزيمة ساحقة ودمر سفنه الحربية(2).

وقد استطاع "دي جاما" إنشاء وكالة تجارية في "كوشين"، وبني حولها سياجاً للدفاع عنها، ولكن بعد عودته إلي بلده استطاع السامري أن يبسط سيطرته علي "كوشين" ويطرد حاكمها والبرتغاليين منها، ولكن ما لبث البرتغاليون أن استعادوا سيطرتهم مرة أخري بوصول أسطول بقيادة "ألفونسو دي ألبوكيرك"، وتجنباً لتكرار هذا الأمر نهج ملك البرتغال سياسة جديدة وهي ترك حاميات صغيرة لحماية الوكالات يعين عليها نائباً من قبله يقيم في الهند لثلاث سنوات بدلاً من إرسال حملات سنوية إلي الهند، وكان أول مندوب ملكي برتغالي

(1) زين الدين المعبري: تحفة المجاهدين، ص27، 79. محي الدين الألوائي: مابلا، ص54.

(2) هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدني في العصور الوسطي، ج4، ص22، 23.

Munshi,K.M.: OP.Cit,,p422.

Panikar: India and Indian Ocean,p41,42.

علي الهند هو "فرانسسكو دي أل ميدا" الذي أرسله إلي الهند سنة 911هـ / 1505م، وقد استقر في "كوشين"، واتخذها مركزاً له، وأعاد بناء قلعتها، كما أنشأ قلاع أخري في "أنجيديف" الواقعة إلي الجنوب من "جوا[1]" وفي "كاناتوري[2]"، ولم يكتف البرتغاليون بالسيطرة علي الموانئ الهندية الهامة وإنما سيطروا كذلك علي الملاحة في الخليج العربي والبحر العربي، واتجهوا للسيطرة علي البحر الأحمر[3].

وكان هدف البرتغاليين منذ وضعوا أقدامهم في السواحل الهندية أن يحكموا سيطرتهم علي أعالي البحار ولم يتجهوا إلي إقامة إمبراطورية برية، وإنما كان هدفهم الأساسي هو الاستيلاء علي الموانئ المهمة والدفاع عنها لتكون مراكز تجارية لهم مع الممالك الهندية [4]،وقد استغل البرتغاليون هذه المراكز للقيام بأعمال القرصنة ضد سفن التجار المسلمين ليمنعوهم من التجارة في المحيط الهندي التي كانت حكراً لهم قبل قدوم البرتغاليين، وقد اتسمت اعتداءات البرتغاليين بالوحشية، وارتكبوا مذابح لمن يقع تحت أيديهم من المسلمين، وقد جأر السامري والتجار المسلمون من هذه الاعتداءات واستغاثوا بسلطان الكَجرات وسلطان مصر ليتعاونوا جميعاً للقضاء علي العدو المشترك أعني البرتغاليين[5].

---

(1) تعد "جوا" من أهم موانئ الدكن التجارية، تقع علي ساحل المحيط الهندي بين ساحلي المليبار والكَجرات*، وكانت تابعة للسلطان "عادل شاه" قبل استيلاء البرتغاليين عليها، وقد جعلها مركزاً لأسطوله، وقد استولي عليها "ألبوكيرك" وأتخذها قاعدة لحكمه بعد انتصاره في "ديو"**.

*محي الدين الألوائي: مابلا، ص57. **نعيم زكي فهمي: طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطي، ص172، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1393هـ / 1973م.

(2) هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدني في العصور الوسطي، ج4، ص23، 24.

Munshi,K.M.: The Delhi Sultante,p424

(3) زين الدين المعبري: تحفة المجاهدين، ص18. يسري أحمد عبد الله زيدان: التاريخ السياسي ومظاهر الحضارة في الشرق الإسلامي زمن المماليك والعثمانيين، ص198، دار النصر للنشر والتوزيع، 1418هـ / 1998م.

(4)Dobwell: The Cambridge History of India ,vol.7: British India (1497:1858) Delhi, 1968,p23.

(5) زين الدين المعبري: تحفة المجاهدين، ص82. محي الدين الألوائي: مابلا، ص55.

Allan: The Cambridge Shorter History of India, p309.

وكان سلطان الكَجرات في ذلك الوقت هو السلطان "محمود شاه بيكَره" (862هـ / 1457م : 917هـ / 1511م) الذي وصلت سلطنة الكَجرات في عهده إلي قمة ازدهارها وقوتها، وهذا يفسر لنا عدم اعتداء البرتغاليين علي موانئ الكَجرات في ذلك الوقت بسبب قوة حاكمها وقوة أسطولها الحربي الذي أنشأ في عهد السلطان "أحمد شاه الأول" (813هـ / 1410م : 846هـ / 1442م) أثناء حربه مع الدكن، ولم يكن للكَجرات قبل ذلك أسطول حربي، وكانت "كمبهايت" هي قاعدة الأسطول في عهده حيث وجدت بها مصانع لصناعة السفن، وقد عمل السلطان "محمود شاه" علي تطوير أسطول الكَجرات ففتح مصانع جديدة لصناعة السفن في "ديو"، بالإضافة إلي استمرار إنتاجها في "كمبهايت" و"كَوكَه"، وقد مكنه هذا الأسطول من القضاء علي نشاط القراصنة ، وتمتعت موانئ الكَجرات في عهده بالأمان، وتحاشي البرتغاليون الهجوم عليها، وحرصت سلطنة الكَجرات علي القضاء علي قرصنة البرتغاليين في المحيط الهندي وتعطيلهم للتجارة الكَجراتية التي كان يعود علي سلطنة الكَجرات أرباح طائلة منها[1].

تحالف سلاطين الكَجرات ومصر والزاموريين ضد البرتغاليين:

كانت مصر في ذلك الوقت تحت حكم السلطان المملوكي "قانصوه الغوري" (906هـ /1501م: 922هـ / 1516م)، وقد أحدثت سيطرة البرتغاليين علي المحيط الهندي واحتكارهم تجارة التوابل أثر سيئ علي اقتصاد المماليك وحلفائهم تجار البندقية، فقد أغرق البرتغاليون أسواق أوربا بالسلع الشرقية وخاصة التوابل بأسعار رخيصة، وذلك في مقابل تقديم مصر هذه السلع بأسعار باهظة بسبب ما تفرضه سلطنة المماليك علي التجار من ضرائب باهظة كانت تبلغ أحياناً ما يوازي ثمن البضائع نفسها.

(1) السيد أبي ظفر الندوي: أسطول الكَجرات(2) : صلة الكَجراتيين بالملاحة، ص54: 56، ثقافة الهند، يناير 1966م. محمد إسماعيل الندوي: تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية، ص163، 164.
Stanley Lane Poole: Medieval India Under Mohammedan Rule (712-1762 a.d.), London, 1903,p170.
Wolseley Haig: The Cambridge History of India, Vol. III,p312.

وقد أدي تحول طريق التجارة إلي فقدها كثير من التجار الأجانب الذين كانوا يقومون بتوزيع هذه السلع في أوربا، وفي مقدمتهم تجار البندقية الذين كانوا يحتكرون توزيع هذه السلع في أوربا قبل احتكار البرتغاليين لها، هذا بالإضافة إلي حرمان سلاطين المماليك من مورد اقتصادي مهم يتمثل في الرسوم الباهظة التي كانوا يفرضونها علي التجار، كما أن اتساع نشاط البرتغاليين في الهند، وسيطرتهم علي مصادر تجارة التوابل حجب وصولها بكميات كبيرة إلي مصر، مما وضع المماليك في ظروف اقتصادية صعبة[1].

وبذلك اتضح للسلطان "قانصوه الغوري" أن ازدياد النفوذ البرتغالي في الهند يقضي علي مصالحه التجارية وهيبته أمام العالم، وتأكد من ذلك بصورة عملية عندما أرسل أسطوله التجاري إلي ساحل المليبار وعاد مشحوناً بالبضائع الهندية والتوابل، وعلي متنه عدد كبير من الأمراء الهنود، وعدد من الحجاج المسلمين، وقد تعرض في عودته لهجوم سفن الأسطول البرتغالي التي صادرت معظم ما تحمله السفن من بضائع، وقد أثار هذا الأمر ثائرة السلطان "الغوري"، فقرر القيام بعمل حربي لوقف تهجم البرتغاليين علي سفنه في الهند، وسفن أمراء "كاليكوت" الموالين له[2].

ولذلك عندما وصلت استغاثة ملك السامري إلي السلطان "قانصوه الغوري" أمر بصنع عدد من السفن الحربية في "رشيد" أشرف علي صنعها الأمير "محمد بك" ، كما بني "الغوري"

(1) أحمد دراج: المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي، ص128، دار الفكر العربي، 1961م. بانيكار ك. م.: آسيا والسيطرة الغربية، ص69: 71، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، مراجعة أحمد خاكي، دار المعارف، 1962م. عبد الرحمن الرافعي، سعيد عبد الفتاح عاشور: مصر في العصور الوسطي، ص528. محمد إسماعيل الندوي: تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية، ص162، 163، ط1، دار الفتح للطباعة والنشر، بيروت. محمود رزق سليم: الأشرف قانصوه الغوري، ص83، الدار المصرية للتأليف والترجمة، (د.ت) محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك ، ص260. يسري أحمد عبد الله زيدان: التاريخ السياسي ومظاهر الحضارة في الشرق الإسلامي زمن المماليك والعثمانيين، ص202.
Allan, The Cambridge Shorter History of India,p309.

(2) أحمد دراج: المماليك والفرنج ، ص129. بانيكار: آسيا والسيطرة الغربية، ص77. محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك، ص59.

أسطولا بحريا كبيرا بالسويس[1]، وأسند قيادة الأسطول إلي القائد البحري المحنك الأمير "حسين الكردي" ، وولاه نيابة "جدة"، وأشرف السلطان "الغوري" بنفسه علي الاستعداد للحملة التي خرجت من القاهرة في جمادي الآخر 911هـ / 1505م[2].

وقد جهز الأمير "حسين" أسطولاً قوياً شحنه بالمدافع والرجال، وكان "سليمان الريس[3]" من أهم رجاله، وكان تحت إمرته فرقة من الأتراك العثمانيين[4]، فقد كان للدولة العثمانية دور كبير في إمداد "الغوري" بالتجهيزات اللازمة لهذه الحملة لما لها من قوة بحرية في البحر المتوسط ، كما أرسل السلطان العثماني "بايزيد الثاني" فريقا من المهندسين والفنيين والبحارة للمساهمة في بناء الأسطول المملوكي للقضاء علي خطر البرتغاليين في الهند.[5]

---

(1) محمود رزق سليم: الأشرف قانصوه الغوري، ص98.

Wolseley Haig: The Cambridge History of India, Vol. III,p312.

(2) ابن إياس، محمد بن أحمد بن إياس الحنفي: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ط2، حققها وكتب لها المقدمة والفهارس محمد مصطفي، ج4 (906هـ / 1501م : 921هـ / 1515م)، ص84 ، القاهرة، 1379هـ / 1960م. زين الدين المعبري: تحفة المجاهدين، ص82، 83. أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي (ت 1089هـ): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج7، ص115، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت) النهروالي: البرق اليماني، ص19. عبد الرحمن الرافعي، سعيد عبد الفتاح عاشور: مصر في العصور الوسطي، ص258. ريتشارد مورتيل: الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي، ص192، ط1، عماد شئون المكتبات- جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، 1405هـ / 1985م. محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك ، ص59.

(3) "سليمان الريس التركماني" بدأ حياته في خدمة السلطان "سليم العثماني"، وقد بعثه علي رأس قوة ليساعد السلطان "قنصوه الغوري" في الحملة التي كان يعدها للقضاء علي البرتغاليين في الهند، وقد صحب الأمير "حسين الكردي" في حملته علي الهند سنة 914هـ / 1508م، وقد قتل "سليمان الريس سنة 936هـ / 1529م.

Denison Ross: The Portuguese in India and Arabia between 1507 and 1517,Journal of The Royal Asiatic Society,Part 1, January,1922,p3,10.

(4) النهروالي: البرق اليماني، ص19، 20. أحمد دراج: المماليك والفرنج، ص155. بانيكار: آسيا والسيطرة الغربية، ص89.

Wolseley Haig: The Cambridge History of India, Vol. III,p312.

(5) روبير مانتران: تاريخ الدولة العثمانية ، ج1، ص212، 213، ترجمة بشير السباعي ، ط1، دار الفكر، القاهرة، 1993م.

وقد عمل الأمير "حسين الكردي" علي تحصين "جدة" خوفاً من استهداف البرتغاليين "لمكة" و"المدينة" لانتهاك حرمتهما والتنكيل بالمسلمين، فعمل علي بناء سور حول "جدة"، وبعد أن فرغ من بنائه توجه إلي الكَجرات[1] ، وقد اختلف المؤرخون في تاريخ بناء هذا السور، فبينما ذكر "ابن إياس" أن بناءه كان في صفر سنة 912هـ / 1506م[2]، ذكر "قطب الدين النهروالي" أن بناء السور كان في سنة 917هـ / 1511م، وأنه استعان في بنائه بأموال سلطان الكَجرات السلطان "محمود شاه بيكَره[3]".

ولكني أرجح رواية "ابن إياس" لعدة أسباب أولاً عدم دقة "النهروالي" في رواية هذه الأحداث وفي ذكر تواريخها، وذلك في مقابل دقة "ابن إياس" ومصداقيته، ويضاف إلي ذلك سبب آخر مهم وهو معاصرة "ابن إياس" للحدث، فكان شاهد عيان عليها، ولكن "النهروالي" لم يكن معاصراً للأحداث، فكتب ما سمعه، وليس ما رآه.

وعند وصول الأمير "حسين" إلي "ديو" استقبله "ملك إياز" بحفاوة شديدة، و"ملك إياز" هو أحد مماليك السلطان "محمود شاه بيكَره" وكان قد أقطعه "جونكَره" و"ديو" وأسند إليه قيادة الأسطول، وعندما تصاعد خطر البرتغاليين في المحيط الهندي كتب إليه السلطان "محمود بيكَره" بتجهيز حملة بحرية للقضاء عليهم، كما استعد السلطان نفسه للقيام بحملة برية ضدهم، وتحرك علي رأس جيشه من "چانبانير" إلي "الدمن" حيث عسكر هناك، وكان وصول الأمير "حسين" في ذلك الوقت، فانضم إليه "ملك إياز" ووضع تحت إمرته كل ما يحتاجه، وضم أسطول الكَجرات إلي أسطوله[4].

---

(1) العز عبد العزيز بن النجم بن فهد المكي: بلوغ القري في ذيل إتحاف الوري بأخبار أم القري، ج3، ص1918، تحقيق ودراسة صلاح الدين بن خليل إبراهيم ، وعبد الرحمن بن حسين أبو الخيور، وعليان بن عبد العالي النحلبدي ، دار القاهرة، 1425هـ / 2005م. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج7، ص115. النهروالي: البرق اليماني، ص20. يحي بن الحسين: غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، ص631. محمد إسماعيل الندوي: تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية، ص173.

(2) ابن إياس: بدائع الزهور، ج4، ص95، 96.

(3) النهروالي: البرق اليماني، ص19، 20.

(4) الآصفي: ظفر الواله، ج1، ص37. زين الدين المعبري: تحفة المجاهدين، ص83. أبي المظفر الندوي، أسطول الكَجرات (2): صلة الكَجراتيين بالملاحة، ص56.

Bayley: The Local Muhammdan Dynasties, Gujarat,p222.

Stanley Lane Poole: Medieval India Under Mohammedan Rule,p176,177.

Wolseley Haig: The Cambridge History of India, Vol. III,p312.

وقد اتخذ القائد "حسين الكردي" "ديو" مركزاً لأسطوله وأسطول الكَجرات وأسطول السامري، فقد أرسل حاكم "كاليكوت" "ساموتراي" أسطولا من أربعين سفينة حربية[1]، وكان نائب ملك البرتغال في الهند في ذلك الوقت هو "فرانسيسكو دي آل ميدا"، القائد البرتغالي الذي اشتهر بالذكاء والحكمة، وكان "آل ميدا" مدركاً جيداً للتحدي الذي يواجهه مستقبل البرتغاليين في المحيط الهندي فعمل علي الاستعداد لمواجهة هذا التحدي، فاتجه إلي الشمال بأسطوله الذي شحنه بمعدات حربية ضخمة[2]، في الوقت الذي اتفق فيه الأمير "حسين" و"ملك إياز" علي التحرك صوب "چيول[3]" أو "شول[4]".

وقد أسندت قيادة الأسطول البرتغالي إلي "لورانكو بن فرانسيسكو دي آلميدا"، وقد اعتمد البرتغاليون أساساً في هذه الحرب علي المدفعية لإضعاف الأسطوليين المصري والكَجراتي، ولكنهم وجدوهما علي أتم الاستعداد للمواجهة، وبعد يومين من التراشق بالمدفعية فر الأسطول البرتغالي من المعركة بعد أن أغرقت سفينة العلم وقتل القائد نفسه، وبعد هذه الهزيمة الساحقة للبرتغاليين من عدو متساوي معهم في التجهيزات الحربية وفي قوة الأسطول، أوشك حلم البرتغاليين في السيطرة علي المحيط الهندي علي الانهيار[5].

---

(1) زين الدين المعبري: تحفة المجاهدين، ص83. محي الدين الألوائي: مابلا، ص55.

(2) محي الدين الألوائي: تحفة المجاهدين، ص55. هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدني في العصور الوسطي، ج4، ص31.

Allan, The Cambridge Shorter History of India,p310.

Longworth Dames: The Portuguese and Turkes in The Indian Ocean in The Sixteenth Century,Journal of The Royal Asiatic Society, 1921,Part 1, January,p5.

Panikar: India and Indian Ocean,p42.

(3) يعد ميناء "چيول" أو "شول" أكبر ميناء في منتصف الساحل الغربي للهند ، فهو يقع علي ساحل كوكن*، وهو من موانئ الكَجرات المزدهرة**، ويبعد "جيول" أربعين ميل جنوب "بومباي" ***.

*زين الدين المعبري: تحفة المجاهدين، ص83. **نعيم زكي فهمي: طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطي، ص172.

Munshi,K.M.: The Delhi Sultante,p425.***

وقد رسمت بالصوت "چ" الفارسي في المصادر الفارسية والعربية، ولكن في المراجع الأجنبية رسمت Ch، ولذلك عندما ترجمتها المراجع العربية عن المراجع الأجنبية نقلتها "شول"، ولكنني أرجح النطق الفارسي لها لأنه الاسم الذي عرفت به أثناء فترة البحث.

(4) الآصفي: ظفر الواله، ج1، ص 37. زين الدين المعبري: تحفة المجاهدين، ص83.

(5) بانيكار: آسيا والسيطرة الغربية، ص89. محمد إسماعيل الندوي: تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية، ص174.هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدني في العصور الوسطي، ج4، ص30، 31.

Panikar: India and Indian Ocean,p42,43.

Stanley Lane Poole: Medieval India Under Mohammedan Rule,p177.

وفي أثناء هجوم الأسطوليين المصري والكَجراتي علي الأسطول البرتغالي سنة 913هـ / 1507م في ميناء "چيول" كان "ملك إياز" مستعداً بقواته عند الساحل، وعلي أثر هزيمة البرتغاليين وتدمير كثير من سفنهم، فر من بقي منهم في السفن السليمة إلي الساحل حيث كان "ملك إياز" متربصاً لهم، وقد هزمهم بعد معركة برية نشبت بينهما، وقتل منهم عدداً كبيراً، كما وقع في أسره عدد أكبر[1]، وكان من ضمن الأسري البرتغاليين عدد من قادتهم، وقد وعدهم "ملك إياز" أن يسلمهم إلي سلطان الكَجرات وليس لقائد الأسطول المصري[2]، وقد بلغ شهداء جنود الأمير "حسين" حوالي أربعمائة رجل، بينما بلغ شهداء رجال "ملك إياز" ستمائة رجل[3].

ولا نعرف علي وجه الدقة عدد سفن الأسطول الكَجراتي التي ساهمت في معركة "چيول"، ولكن طبقاً لما ورد من إرسال ثلاثمائة سفينة من الأسطول الكَجراتي للقضاء علي تمرد "بهادر الكَيلاني[4]"، علي النحو الذي ذكر في الفصل السابق، يمكننا أن نرجح مشاركة الأسطول الكَجراتي بعدد أكبر من السفن في هذه الحملة الهامة[5].

وقد كتب "ملك إياز" إلي السلطان "محمود بيكَره" يبشره بالنصر، وقد اغتبط السلطان بذلك واتجه بنفسه لاستقبال "ملك إياز" والأمير "حسين" تكريماً لهما ، واصطحبهما إلي قبابه

(1) الآصفي: ظفر الواله، ج1، ص37. زين الدين المعبري: تحفة المجاهدين، ص83. ملا عبد القادر نهاوندي: مآثر رحيمي، ص147. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج7، ص115. الهروي: طبقات أكبري، ج3، ص106. عبد الرحمن الرافعي، سعيد عبد الفتاح عاشور: مصر في العصور الوسطي ، ص258، 529. محمد إسماعيل الندوي: تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية، ص167، 168. محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك، ص59.
Bayley: The Local Muhammdan Dynasties, Gujarat,p222.
Gazetteer of The Bombay Presidency :History of Gujrat,p248.
Smith, A. Vincent: The Oxford History of India,p269.
Wolseley Haig: The Cambridge History of India, Vol. III,p312.
(2) Longworth Dames: The Portuguese and Turkes,p8.
(3) الآصفي: ظفر الواله، ج1، ص37. الهروي: طبقات أكبري، ج3، ص106. أبي ظفر الندوي: الأسطول الكَجراتي (2): صلة الكَجراتيين بالملاحة، ص57.
Bayley: OP.Cit,p222.
(4) الآصفي: ظفر الواله ، ج1، ص33. الهروي: طبقات أكبري، ج3، ص43.
Bayley: The Local Muhammdan Dynasties, Gujarat,p219
Gazetteer of The Bombay Presidency :History of Gujrat,p248.
(5) أبي ظفر الندوي: الأسطول الكَجراتي (2): صلة الكَجراتيين بالملاحة ، ص57.

حيث أنعم عليهما برعايته واهتمامه، وقد اختص الأمير "حسين" باهتمام كبير، وعرض عليه أن ينضم إلي حاشيته ويقطعه "مهائم" . "بومباي" الحالية . ولكن الأمير "حسين" اعتذر بأنه مكلف من قبل سلطانه "الغوري" بالقضاء علي مخطط البرتغاليين للاستيلاء علي "هرمز"، فإذا فرغ من مهمته عاد ليدخل في خدمة السلطان "محمود بيكَره"، وأثناء إقامة الأمير "حسين" في الكَجرات كان متمتعاً برعاية السلطان "محمود بيكَره" حتي استأذنه في التحرك إلي "هرمز" لإنجاز مهمته، فأذن له وأمده بكل ما طلبه[1].

وقد وصلت أخبار هذا الانتصار الباهر إلي السلطان "قنصوه الغوري" الذي أمر أن تقام الاحتفالات ثلاثة أيام احتفاء بهذا النصر العظيم، وعزم علي إجابة طلب الأمير "حسين" بإرسال الإمدادات له ليتقوي بها في القضاء علي البرتغاليين نهائياً في المحيط الهندي[2]، وقد عمل السلطان "الغوري" علي تجهيز هذه الإمدادات، وأسند هذا الأمر إلي الأمير "علاء الدين" الذي أشرف علي بناء السفن الحربية لحرب البرتغاليين[3].

ولكن "فرانسيكو دي آلميدا" لم يستسلم للهزيمة، وعزم علي الانتقام لمقتل ابنه، فجمع كل السفن التي استطاع الحصول عليها، وقد استطاع الحصول علي ثماني عشرة سفينة، وجمع ألف ومائتين جندي، وأبحر للشمال مرة أخري للقاء العدو، ووصل "ديو" في 915هـ / الثاني من فبراير 1509م، وفاجأ الأسطول المتحد من الأسطول المصري والأسطول الكَجراتي وأسطول السامري ، ولم يكونوا مستعدين للقتال، وقد ركز البرتغاليون قتالهم علي سفن الأمير "حسين" فاستطاعوا أسر بعضها ودمروا الباقي منها، وقد نجا الأمير "حسين" نفسه بأعجوبة بعد أن عاني كثيراً من الشدائد والمحن[4].

---

(1) الآصفي: ظفر الواله، ج1، ص37، 38. يحي بن الحسين: غاية المعاني في أخبار القطر اليماني، ص635.

(2) ابن إياس: بدائع الزهور، ج4، ص142.

(3) ابن إياس: المصدر نفسه، ج4، ص151.

(4) ابن إياس: بدائع الزهور، ج4، ص182، 183. زين الدين المعبري: تحفة المجاهدين، ص84. عز الدين عبد العزيز بن فهد : غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام، ج3 ، ص1666، 1667 ، تحقيق فهيم محمد شلتوت، ط1 ، جامعة أم القري، 1409هـ / 1988م. محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك، ص60.

Munshi,K.M.: The Delhi Sultante,p425.

Stanley Lane Poole: Medieval India Under Mohammedan Rule,p177.

Wolseley Haig: The Cambridge History of India, Vol. III,p316.

وفي النهاية اضطر الأمير "حسين" للرجوع إلي "جدة" التي وصلها سنة 918هـ / 1512م[1] بعد الهزيمة الساحقة التي حلت بأسطوله وأسطول الكَجرات وأسطول السامري ، وكانت مصيبته أشد لأن البرتغاليين استطاعوا تحطيم الأسطول المصري تماماً، وإغراق العديد من سفنه، ولم يذكر المؤرخون الكَجراتيون شيئاً عن هزيمة "ديو" [2]، ولكن المؤرخان "ابن إياس" و"عز الدين عبد العزيز بن فهد" أخبرانا بهزيمة الأمير "حسين الكردي" وتدمير قواته.

ويفسر بعض المؤرخين تحول دفة الأحداث لصالح البرتغاليين في معركة "ديو" بما حدث من شقاق بين القوات المتحالفة الهندومصرية، فقد ذكر المؤرخون البرتغاليون انقلاب "ملك إياز" حاكم "ديو" الكَجراتي ورجال أسطول السامري علي الأمير "حسين الكردي" قائد الأسطول المصري، وتراجع "ملك إياز" عن تقديم المساعدة والإمدادات له وتحالفه سراً مع البرتغاليين، كما أن السامري لم يرسل إلا عشرة سفن فقط، وإزاء هذا الموقف اضطر الأمير "حسين" إلي خوض المعركة وحده، مما أدي إلي تدمير أسطوله وهزيمته[3].

وقد أكد المؤرخ العربي "عز الدين عبد العزيز بن فهد المكي" هذا التآمر عندما ذكر ما أشاع به الأمير "حسين الكردي" ومن بقي من رجاله من رشوة البرتغاليين "لملك إياز" بمائة ألف دينار ليتخلي عن الأمير "حسين الكردي" أثناء القتال، وكان هذا الأمر هو السبب في هزيمة الأسطول المصري في موقعة "ديو[4]".

ولكن هذه الخيانة المزعومة من "ملك إياز" وما ورد من تحالفه السري مع البرتغاليين قبل معركة "ديو" لم ترد في المصادر الكَجراتية، كما أنها لم ترد في المصدرين المهمين للتأريخ

---

(1) عبد العزيز بن فهد: غاية المرام، ج2 ،ص247.

(2) عبد الرحمن الرافعي، سعيد عبد الفتاح عاشور: مصر في العصور الوسطي ، ص259. محمد إسماعيل الندوي: تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية، ص174. هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدني في العصور الوسطي، ج4، ص31.

Longworth Dames: The Portuguese and Turkes,p9.

Smith, A. Vincent: The Oxford History of India,p269.

(3) Panikar: India and Indian Ocean,p43.

(4) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام، ج3، ص1667.

لهذا الحدث وهما "بدائع الزهور" و"تحفة المجاهدين"، هذا بالإضافة إلي تنافيها مع ما ورد من التعاون السابق بين "ملك إياز" والأمير "حسين الكردي" إبان انتصارهما الباهر علي البرتغاليين في معركة "چيول"، هذا بالإضافة إلي الاستقبال الحافل الذي استقبل به السلطان "محمود بيكَره" الأمير حسين" وتقريبه إليه، حتي أنه طلب منه الانضمام إلي حاشيته، ولم يرد بعد ذلك أي ذكر في المصادر لحدوث خلاف بين الطرفين، كما أنه لا يوجد مبرر لهذا الخلاف.

وإذا افترضنا حدوث هذا الخيانة من قبل "ملك إياز" وسلطان الكَجرات فإن ذلك يضعنا أمام سؤال مهم وهو لماذا أرسل السلطان "محمود بيكَره" والسلطان "مظفر شاه"، الذي خلفه علي عرش الكَجرات، رسائل وسفارات . سيرد ذكرها لاحقاً إن شاء الله . إلي السلطان "الغوري" تطلب منه سرعة تجهيز حملة ضد البرتغاليين لتزايد خطرهم في الهند، وتؤكد علي ضرورة تحالفهما معاً ضد البرتغاليين؟ ولماذا استجاب "الغوري" لهذه السفارات وأعد حملة ثانية للهند وأسند قيادتها للأمير "حسين الكردي" مرة أخري؟ وإذا كان الأمير "حسين" قد عاني من خيانة "ملك إياز" فلماذا يقبل أن يخرج بحملة أخري لمساعدة الكَجرات ضد البرتغاليين؟ وإزاء ذلك يمكننا أن ننفي تحالف "ملك إياز" مع البرتغاليين قبل معركة "ديو"، وخاصة وقد ورد ما يدل علي حروب "ملك إياز" ضد البرتغاليين بعد عودة الأسطول المصري، كما يمكننا أن ننفي خيانة السامري للأمير حسين، فقد ذكر "زين الدين المعبري" إرساله أربعين سفينة لمساندة الأسطول المصري، هذا بالإضافة إلي حربه الدائمة ضد البرتغاليين، مما ينفي أن يكون قد حدث تحالف معهم ضد الأسطول المصري، وبذلك يمكننا القول أن هذا ربما يكون ادعاء من قائد الأسطول المصري ورجاله ليبرروا هزيمتهم أمام السلطان "قنصوه الغوري" وشعبه.

علي أي حال لقد كان من أهم نتائج هذه المعركة أن آلت سيادة المحيط الهندي للبرتغاليين، وإذا كان قد ظهر للبرتغاليين ضعف البحرية الهندية مما مكنهم من بناء إمبراطورية بحرية، فإن هزيمة الأسطول الإسلامي المتحد في "ديو" علي يد البرتغاليين قد تركت لهم حرية فرض سيادتهم علي المحيط الهندي، ووضع أساس السيادة الأوربية في المياه الشرقية، تلك السيادة التي استمرت لأكثر من أربعة قرون[1].

(1) Panikar: India and Indian Ocean,p43.

وبعد رحيل الأسطول المصري من المياه الهندية أصبح الصراع مقتصراً علي البرتغاليين والممالك الهندية، وقد حاول البرتغاليون الاستيلاء علي الموانئ الهندية المهمة، والحصول علي اعتراف من الممالك الهندية بسيادتهم علي المحيط الهندي، وقد خلف "ألفونسو دي ألبوكيوركيو" "دي آلميدا" في منصب نائب الملك الذي تغير لقبه إلي "حاكم الهند"، وبمجرد أن وضع قدمه في الهند في نوفمبر سنة 915هـ / 1509م وجه جهوده لتأسيس مراكز للبرتغاليين جنوب الساحل الغربي للهند.

وكانت "كاليكوت" هي هدفه الأول، وقد حاول الاستيلاء عليها في يناير سنة 916هـ / 1510م منتهزاً فرصة غياب ملك السامري عن المدينة، ولكن سكان المدينة استطاعوا التصدي له وهزيمته، وقد حاول "ألبوكيوركيو" تعويض هذه الهزيمة بالاستيلاء علي ميناء "جوا" بعد هزيمته للسلطان "عادل شاه" سلطان "بيجابور"، حيث بني فيها قلعة منيعة، وأصبحت قاعدة البرتغاليين الرئيسية في الهند، وقد أثارت هذه الهزيمة اضطراب حكام الهند، وعلي رأسهم سلطان الكَجرات[1].

وكان لهزيمة "عادل شاه" رد فعل قوي علي سلطان الكَجرات، فقد أرسل السلطان "محمود بيكَره" سفيراً إلي السلطان "الغوري" في صفر 916هـ / 1510م يطلب منه سرعة تجهيز حملة ضد البرتغاليين في المحيط الهندي بسبب زيادة فسادهم واعتداءاتهم علي التجار المسلمين بعد هزيمة الأسطول المصري في "ديو" وما نتج عن ذلك من بسط البرتغاليين سيطرتهم علي المحيط الهندي، ولذلك يجب عليهما الاتحاد للقضاء علي هذا العدو المشترك[2].

ولم يكن السلطان "الغوري" بحاجة إلي هذه الاستغاثة ليرسل حملة إلي الهند للقضاء علي البرتغاليين، فبعد هزيمة "ديو" طفح الكيل لتعطل تجارة المماليك مع الهند مما كان له أثر سيئ

(1) زين الدين المعبري: تحفة المجاهدين، ص87. هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدني في العصور الوسطي، ج4، ص41.

Longworth Dames: The Portuguese and Turkes,p10.

Munshi,K.M.: The Delhi Sultante,p425.

(2) ابن إياس: بدائع الزهور، ج4، ص182، 183.

علي الاقتصاد المملوكي، ولذلك قام السلطان " الغوري" بالاستعداد لحملة جديدة علي البرتغاليين في الهند، وعين عليها الطواشي "بشير".

وقام بالرد علي رسالة السلطان "محمود بيكَره في الحال فأرسل الطواشي "بشير" في الرابع عشر من ربيع الأول سنة 916هـ / 1510م برسالة إلي السلطان "محمود بيكَره" بضرورة تحالفهما للقضاء علي خطر البرتغاليين في المحيط الهندي، كما أشار كل من "ابن إياس" و"عبد العزيز بن فهد المكي" إلي إرسال السلطان "الغوري" عدة رسائل إلي ملوك الهند الذين يعنيهم هذا الأمر، ليكونوا عوناً معه علي حرب البرتغاليين[1]، وعلي الرغم من عدم ذكر "ابن إياس" أسماء هؤلاء الملوك، إلا إننا يمكننا أن نرجح أن السامري كان هو المعني بهذا الأمر لتحالفه السابق مع المماليك.

وقد ذكر المؤرخون البرتغاليون رد فعل مخالف لسلطان الكَجرات إزاء هزيمة البرتغاليين للسلطان "عادل شاه البيجابوري" واستيلائهم علي "جوا"، فعلي النقيض من المصدر العربي "بدائع الزهور" الذي ذكر لنا المراسلات التي تمت بين السلطان "الغوري" وسلطان الكَجرات لتوطيد التحالف بينهما ضد البرتغاليين، ذكر المؤرخون البرتغاليون مشروع إقامة معاهدة سلام بين البرتغاليين وسلطان الكَجرات، فادعوا إرسال السلطان "محمود شاه بيكَره" سفارة إلي "ألبوكيوركيو" لعرض مشروع إقامة سلام بين الطرفين، علي أن يسمح سلطان الكَجرات بإقامة قلعة للبرتغاليين في ميناء "ديو"، ويتم إطلاق سراح الأسري البرتغاليين، وكان "ملك إياز" هو القائم علي هذه المفاوضات[2].

ولكننا نشك في وجود مفاوضات بهدف إقامة معاهدات سلام بين سلطنة الكَجرات والبرتغاليين في هذه الفترة ، وذلك لعدة أسباب أولاً منعة الكَجرات وقوة أسطولها أثناء حكم السلطان "محمود بيكَره" وابنه السلطان "مظفر شاه"، وقوة "ملك إياز" أمير البحر

(1) ابن إياس: بدائع الزهور، ج4، ص185. عز الدين عبد العزيز بن فهد : بلوغ القري، ج3، ص 1753.عبد الرحمن الرافعي، سعيد عبد الفتاح عاشور: مصر في العصور الوسطي ، ص259.

(2) Longworth Dames: The Portuguese and Turkes,p10,11.
Munshi,K.M.: The Delhi Sultante,p426.

وحاكم "ديو" في ذلك الوقت ، حتي أن البرتغاليين لم يستطيعوا تحقيق أحلامهم في عهد أي منهما في إقامة مركز تجاري لهم أو قلعة علي أرض الكَجرات[1]، وثانياً لم يرد في المصادر الإسلامية أي ذكر لصلح أو مفاوضات حدثت في ذلك الوقت بين الطرفين، ولم تحدث أي مفاوضات إلا في عهد السلطان "بهادر شاه".

سياسة السلطان "مظفر شاه الثاني" تجاه البرتغاليين وسلاطين المماليك:

تميز عهد السلطان "مظفر شاه الثاني حليم" (917هـ / 1511م: 932هـ / 1525م) بالاستقرار والأمان الذي عم سواحل الكَجرات، فلم تستعر أي حرب بحرية في عهده مع البرتغاليين الذي هابوا الاقتراب من سواحل الكَجرات لقوة حاكمها ولمنعة موانئها بفضل تحصيناتها القوية وحماية الأسطول الكَجراتي لها، ومع ذلك لم يتقاعس السلطان "مظفر شاه" عن التجهيز لمحاربة البرتغاليين، وفي سبيل ذلك عمل علي الاهتمام بأسطوله، فقد تم في عهده صناعة سفن كبيرة، كما عمل علي الاتصال بالسلطان "الغوري" في مصر لاستنهاضه للقيام بحملة لطرد البرتغاليين من الهند[2].

وفي هذه الأثناء لم تتوقف جهود السلطان "الغوري" للتجهيز لحملة جديدة للقضاء علي سيطرة البرتغاليين علي المحيط الهندي والتجارة مع الشرق إلا إن جهوده لم يكتب لها النجاح[3]، فقد اعتدي الفرنج، فرسان الاسبتاريه. في البحر المتوسط علي الأمير "محمد بك" سنة 916هـ / 1510م في أثناء توجهه إلي بلاد الشام لجلب الأخشاب اللازمة لبناء السفن، وبعد قتال دار بينهما ، قتل الأمير "محمد بك" واستولي الفرنج علي ما كان معه من مراكب وسلاح، وقد عمل قراصنة الفرنج علي شل حركة التجارة مع الموانئ المصرية والشامية لإعاقة السلطان الغوري عن بناء قوة بحرية لمحاربة البرتغاليين[4]، وقد تقوي الفرنج بهذا النصر وكثرت اعتداءاتهم علي التجار المسلمين في المحيط الهندي والبحر المتوسط[5].

(1) Fuat Sezgin: The Islamic World in Foreign Travel Accounts,vol 79: Mughal India According to European Travel Accounts,p6.

(2) أبو ظفر الندوي: الأسطول الكَجراتي (2): صلة الكَجراتيين بالملاحة، ص58. محمد إسماعيل الندوي: تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية، ص174، 175.

(3) عبد الرحمن الرافعي، سعيد عبد الفتاح عاشور: مصر في العصور الوسطي ، ص259.

(4) أحمد دراج: المماليك والفرنج، ص129. محمود رزق سليم: الأشرف قانصوه الغوري، ص120.

(5) ابن إياس: بدائع الزهور، ج4، ص191، 192.

وفي هذه الأثناء استطاع "ألبوكيوركيو" إحراز نصر جديد للبرتغاليين تمثل في استيلائه علي "مالاكا[1]" سنة 917هـ / 1511م ذلك المركز التجاري المهم الذي حرم منه تجار الكَجرات وتجار المماليك من الاستفادة منه بعد ذلك[2]، وكان ذلك في إطار السياسة البرتغالية الرامية إلي إرساء هيمنة بحرية واسعة مع احتلال مراكز استراتيجية للسيطرة علي طرق التجارة والملاحة في المحيط الهندي[3]، وقد حاول سلطان "بيجابور" "إسماعيل عادل شاه" انتهاز فرصة غياب "ألبوكيوركيو" في هذه الحملة لاسترجاع "جوا"، وعلي الرغم من نجاحه في ذلك إلا إن "ألبوكيوركيو" بعد عودته استطاع استعادتها مرة أخري وهزيمة قوة "بيجابور" سنة 918هـ / 1512م[4].

وكانت لهزيمة سلطان "بيجابور" أثرها المهم علي سلاطين الكَجرات وملوك السامريين الذين أدركوا صعوبة القضاء علي سيطرة البرتغاليين علي المحيط الهندي، وتذكر المصادر البرتغالية إرسال سلطان الكَجرات مرة أخري عارضاً مشروع إقامة السلام مع البرتغاليين[5]، وعرض "السامري" نفس العرض علي البرتغاليين، وسمح لهم بإنشاء وكالة لهم في "كاليكوت"، في الوقت الذي أرسل فيه إلي السلطان "الغوري" سنة 920هـ / 1514م يستنهضه علي قتال البرتغاليين[6].

حصول السلطان "مظفر شاه الثاني" على تفويض من الخليفة العباسي:

لقد رغب السلطان "مظفر شاه الثاني" (917هـ / 1511م : 932هـ / 1526م) في إضفاء الصبغة الشرعية علي حكمه، وذلك بالحصول علي تقليد من الخليفة العباسي الذي

(1) "مالاكا" أو "مالقا" هي جزر الملايو، وقد بدأ البرتغاليون علاقتهم بها بعد انتصارهم في معركة "ديو"، وسعوا للقضاء علي النشاط التجاري للتجار المسلمون هناك، حتي تمكنوا من احتلال "مالقا" نفسها سنة 917هـ / 1511م. أحمد شلبي: موسوعة التاريخ والحضارة الإسلامية، ج8: الإسلام والدول غير الإسلامية بآسيا، ص491، 492.

(2) محي الدين الألوائي: مابلا، ص55.

Munshi,K.M.: The Delhi Sultante,p426.

(3) لويس فيليب باريتو: فجر عصر جديد، ص7.

(4) محي الدين الألوائي: مابلا، ص 56.

Munshi,K.M.: OP.Cit,p426.

(5) Munshi,K.M.: OP.Cit,p426.

(6) عبد العزيز بن فهد: بلوغ القري في ذيل إتحاف الوري بأخبار أم القري، ج3، ص1944.

كان قائماً في مصر في ذلك الوقت ، فبعد سقوط "بغداد" في يد المغول وقتلهم الخليفة العباسي "المستعصم" في اليوم الرابع عشر من صفر سنة 656هـ / 1252م ظل العالم الإسلامي بدون خلافة ثلاث سنوات ونصف سنة، حتي ظهر في مصر "أبو القاسم أحمد بن أمير المؤمنين الظاهر بأمر الله"، وهو عم الخليفة "المستعصم"، وأخو الخليفة "المستنصر"، وكان معتقلاً "ببغداد" ثم أطلق سراحه، فقدم إلي "القاهرة" في صحبة بعض الأعراب، وقابل السلطان المملوكي "الظاهر بيبرس"، وعقد السلطان اجتماع في قلعة الجبل حضره القضاة والوزراء والأمراء، وأثبت فيه نسب الخليفة، وبايعه الجميع، وفي اليوم التالي خلع الخليفة العباسي علي السلطان "الظاهر بيبرس" وقلده السلطنة[1].

وقد رغب السلطان "مظفر شاه الثاني" في إضفاء الصفة الشرعية علي حكمه بحصوله علي تقليد من الخليفة العباسي، ولتحقيق ذلك أرسل سفارة إلي البلاط المملوكي في مصر صحبة الأمير "حسين" العائد من حملته علي الهند في رمضان سنة 918هـ / 1512م، وكان لهذه السفارة هدفان رئيسيان: الهدف الأول الحصول علي تقليد من الخليفة العباسي "أمير المؤمنين أبو الصبر يعقوب بن عبد العزيز العباسي[2]" بولاية السلطان "مظفر شاه" علي الكَجرات، والهدف الثاني توطيد العلاقات بين سلطنتي الكَجرات والمماليك في مصر، وقد استقبل السلطان "الغوري" سفير السلطان "مظفر شاه" والأمير "حسين" استقبالا حافلا، وخلع عليهما، وأنزلهما في موكب فخم، وفي أول أيام عيد الفطر المبارك قدم سفير السلطان "مظفر شاه" الهدايا الفخمة للسلطان "الغوري"، وقد عاد السفير الكَجراتي بتقليد الخليفة العباسي إلي السلطان "مظفر شاه[3]".

ويتضح من ذلك توطد العلاقات بين مصر والكَجرات في هذه الفترة واتحادهما لمواجهة عدوهما المشترك وهو البرتغاليون، كما تدل هذه السفارة علي عدم سكوت السلطان

(1) السيوطي، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، مج2، ص46، 47، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، 1998م.

(2) ابن طولون ، شمس الدين محمد أبو عبد الله محمد الصالحي الدمشقي: مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، حققه وكتب مقدمته محمد مصطفي، القسم الأول، ص352، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، 1381هـ / 1962م.

(3) ابن إياس: بدائع الزهور، ج4، ص286، 287. محمود رزق سليم: الأشرف قانصوه الغوري، ص113.

"الغوري" عن التجهيز لحملة أخري ضد البرتغاليين في المحيط الهندي، ومما يدل علي هذا التجهيز للحملة بناؤه أسطول كبير "بالسويس"، عمل علي تزويده بالأسلحة، وقد تم بناؤه في ربيع الثاني من سنة 919هـ / 1513م، وقام "الغوري" بزيارة "السويس" لمشاهدته في محرم من سنة 920هـ/ 1514م، وكان المشرف علي بنائه "سلمان الريس"، وقد بلغت تكاليف بنائه أكثر من أربعمائة ألف دينار[1].

واستعداداً لهذه الحملة قام السلطان "الغوري" بتعيين نفقات الجنود المشاركين فيها، فوزع الأموال في جمادي الأول سنة 921هـ / 1515م علي المماليك المشاركين في الحملة والمتطوعين ليستعينوا بها علي التجهز للحملة، فأعطي كل مملوك خمسين دينار، علي أن يصرف لهم راتب ستة أشهر قبل السفر، وقد أعفي المرضي منهم ومن لا طاقة له علي ركوب البحر[2]، وقد وصلت هذه الحملة إلي "جدة" في شوال سنة 921هـ / 1515م، وتكونت من تسعة عشر مركباً تقريباً وثلاثة آلاف جندي، غير البحارة الذين كانوا تحت قيادة "سلمان الريس" الذي كان تحت قيادة الأمير "حسين" في الحملة السابقة علي البرتغاليين في الهند، وكانت له خبرة كبيرة بفنون القتال والحرب[3].

ورغم هذه الاستعدادات الهائلة التي قام بها السلطان "الغوري" لحملته علي الهند إلا إنها لم يكتب لها النجاح، وذلك لأن القوات المصرية بقيادة الأمير "حسين الكردي" وقعت في شرك محاولة الاستيلاء علي اليمن قبل توجههم إلي الكَجرات للقضاء علي البرتغاليين في الهند، وعلي الرغم من الحروب الهائلة التي خاضوها مع ملكها "عامر بن عبد الوهاب[4]" سنة 922هـ/ 1516م، إلا إن الأمر انتهي بهزيمة العساكر المصرية في اليمن هزيمة ساحقة وانسحابهم إلي "جدة[5]"، وبذلك فشلت هذه الحملة في أن تحقق أي نتائج للقضاء علي سيطرة البرتغاليين في المحيط الهندي.

(1) محمود رزق سليم: المصدر نفسه، ص98، 99.
(2) ابن إياس: بدائع الزهور، ج4، ص459، 460.
(3) عبد العزيز بن فهد: بلوغ القري في ذيل إتحاف الوري بأخبار أم القري، ج3، ص2008: 2010.
(4) السلطان الملك الظافر "عامر بن عبد الوهاب" سلطان اليمن، كان علي جانب عظيم من التقوي والورع، استمر ملكه تسعا وعشرين سنة، قتل سنة 922هـ / 1516م. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج7، ص124.
(5) زين الدين المليباري: تحفة المجاهدين، ص84. النهروالي: البرق اليماني، ص23، 24. يحي بن الحسين: غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، ص642: 645.

علي أي حال لقد كانت هذه الحملة هي آخر عمل قامت به سلطنة المماليك لمحاولة القضاء علي البرتغاليين في المحيط الهندي، فقد سقطت مصر والشام بعد ذلك في يد السلطان العثماني "سليم خان بن بايزيد خان" في سنة 922هـ / 1516م بعد هزيمة المماليك في معركة "مرج دابق" التي قتل فيها السلطان "الغوري"، كما هزموا في موقعة "الريدانية" سنة 923هـ / 1517م وقبض علي آخر سلاطين المماليك "طومان باي" وتم شنقه[1]، ومنذ ذلك الوقت حملت الدولة العثمانية عبء القضاء علي سيطرة البرتغاليين في المحيط الهندي، وقد أصدر السلطان "سليم خان" فرماناً سلطانياً بقتل أمير "جدة" الأمير "حسين الكردي"، وبذلك انتهت حياة الأمير "حسين الكردي" بنهاية سادته سلاطين المماليك.

وعلي الرغم من سقوط دولة المماليك التي كانت معقد أمل الممالك الهندية في القضاء علي البرتغاليين إلا إنهم لم يتوقفوا عن محاولة التصدي للخطر البرتغالي، وتأتي الكَجرات علي رأس هذه الممالك، فقد قام "ملك إياز" في عهد السلطان "مظفر شاه الكَجراتي" بحملة ضد البرتغاليين ومراكزهم علي الساحل الغربي للهند، ووصل بغارته إلي "كاليكوت" في سنة 927هـ / 1520م[2].

ولكن للأسف جهود "ملك إياز" في حرب البرتغاليين توقفت بوفاته سنة 928هـ / 1521م، وقد تمتعت سواحل الكَجرات بالمنعة في الفترة التي كان يشغل فيها منصب "أمير البحر[3]"، وذلك علي الرغم من طول سواحل الكَجرات التي امتدت في عهد سلطنة الكَجرات من حدود السند إلي آخر ساحل الكوكن، ولم يجرؤ البرتغاليون علي الاعتداء عليها لسطوة "ملك إياز" وقوة الأسطول الكَجراتي في عهده، وذلك علي الرغم من قرب مركز البرتغاليين "چيول" من سواحلها، ولكن "ملك إياز" لم يكن يسمح لأي سفينة برتغالية بالدخول في مياه الكَجرات إلا بغرض التجارة.

---

(1) النهروالي: البرق اليماني، ص24، ص25. عبد الرحمن الرافعي، سعيد عبد الفتاح عاشور: مصر في العصور الوسطي ، ص559 ،535، 536.

(2) الآصفي: ظفر الواله، ج1، ص113. أبي ظفر الندوي: أسطول كَجرات(1)، ص97.
Rahman,S.A.: The Beautiful India: Gujarat,p62.

(3) أمير البحر هو الرئيس الأعلي لجميع الأساطيل والسفن، ويشرف علي كل العاملين في الأسطول، ويطلق عليه بالإنجليزية "أدميرال"، هذا بالإضافة إلي إشرافه علي تنظيم الموانئ. أبي ظفر الندوي: أسطول الكَجرات (3)، ص78.

ولذلك ظلت تجارة الكَجرات مزدهرة وآمنة في عهده، ولا سيما ميناء "ديو" الذي وصل إلي قمة ازدهاره التجاري أثناء فترة ولايته عليه، وقد ذكر "الآصفي" أنه كان يبحر من "ديو" في ذلك الوقت ما يزيد علي مائة مركب تجاري سنوياً، هذا بالإضافة إلي المراكب المسافرة التي تزيد علي الألف، والأغربة الحربية التي تزيد علي المائتين[1]، ولتحصين ميناء "ديو" من هجمات البرتغاليين بني "ملك إياز" قلعة قوية فوق صخرة ضخمة في الماء، تمتد منها سلسلة حديدية ضخمة عبر مدخل الميناء، وقد بني قنطرة لربط جزيرة "ديو" بشبه جزيرة كاثيوارا، لسرعة وصول الإمدادات إليها وقت الحرب، وقد دمره البرتغاليون بعد ذلك[2].

علاقة السلطان "بهادر شاه" بالبرتغاليين:

لقد اهتم السلطان "بهادر شاه" (932هـ / 1526م : 943هـ / 1536م) بالأسطول الكَجراتي وعمل علي تزويد سفنه بالمدافع، وقد بلغت شهرة الأسطول الكَجراتي في ذلك الوقت مداها حتي أن البرتغاليين تحاشوا الدخول معه في أي اشتباك، كما كان السلطان "بهادر شاه" دائم التفقد لموانئ الكَجرات يقظاً لأي هجوم عليها من قبل البرتغاليين الطامعين في موانئ الكَجرات الغنية[3] ، وخاصة ميناء "ديو" الذي حاولوا مراراً الاستيلاء عليه، ففي بداية عهد السلطان "بهادر شاه" حاول البرتغاليون التردد علي "ميناء "ديو" للتجارة، ورست سفينة للبرتغاليين في ميناء "ديو" سنة 934هـ / 1527م وقد أسر "قوام الملك" من كان عليها من البرتغاليين واستولي علي أموالهم، وأرسل للسلطان "بهادر" بما حدث، فتوجه السلطان إلي "ديو" براً، وعندما وصل إليها عرض عليه "قوام الملك" الأسري البرتغاليين، وقد دعاهم السلطان "بهادر" للإسلام، فاستجاب له كثير منهم[4].

ويمكننا أن نستنتج أن قدوم هذه السفينة البرتغالية إلي ميناء "ديو" كان بغرض استكشاف الأوضاع في الميناء، ولحساب رد فعل سلطنة الكَجرات تجاه أي حملة توجه لميناء

(1) الآصفي: ظفر الواله، ج1، ص116، 117. أبي ظفر الندوي: الأسطول الكَجراتي (2): صلة الكَجراتيين بالملاحة، ص58.

(2) Gazetteer of The Bombay Presidency :History of Gujrat,p250.

(3) أبي ظفر الندوي: الأسطول الكَجراتي (2): صلة الكَجراتيين بالملاحة ، ص58.

(4) محمد قاسم هندوشاه: فرشته، ص216. ملا عبد القادر نهاوندي: مآثر رحيمي، ص172. الهروي: طبقات أكبري، ج3، ص130، 131.

Bayley: The Local Muhammdan Dynasties, Gujarat,p339,340.

Wolseley Haig: The Cambridge History of India, Vol. III,p325.

"ديو"، وعلي أي حال هذه الحادثة تدل علي تطلع البرتغاليين للاستيلاء علي ميناء "ديو"، وتحسباً لأي اعتداء عليها قام السلطان "بهادر شاه" بعدة إجراءات لتأمين "ديو" من أهمها تعيين حاكم قوي عليها هو "قوام الملك"، كما قام بتقوية استحكامات قلعة "بهروج" تحسباً لهجوم البرتغاليين عليها[1].

ومن الأمراء البارزين الذين تولوا علي "ديو" أيضاً "ملك طوغان بن ملك إياز" الذي كان له دور كبير في حرب البرتغاليين، ولاه السلطان "مظفر شاه" (917هـ / 1511م : 932هـ / 1526م) علي ميناء "ديو" بعد وفاة والده، ولم يكن يوجد بين أمراء السلطان "بهادر شاه" مثله في قوته وشجاعته وهيبته، وقد عمل علي السير علي نهج أبيه في التصدي لاعتداءات البرتغاليين، فكانت الحرب بينه وبينهم سجالاً، وقد تعضد في أحد جولاته في هذه الحرب بوصول الأمير التركي "مصطفي بن بهرام" ابن أخت الأمير "سلمان"، ومعه عدد من السفن الحربية التي لم يعهد البرتغاليون بمثلها في المياه الهندية[2].

وقد تصادف وصوله مع قيام البرتغاليين بحملة للاستيلاء علي "ديو"، حيث اتجه أسطول برتغالي كبير بقيادة نائب ملك البرتغال علي الهند "نون دي كنها" سنة 938هـ/ 1531م للاستيلاء علي "ديو"، وبينما كان "الملك طوغان" يستعد لقتالهم، استأذنه "مصطفي" في الخروج لقتال البرتغاليين فأجابه إلي ذلك، وقد دافع هو ورجاله . البالغ عددهم ثلاثمائة تركي . عن "ديو" دفاعاً مستميتاً حتي أجبروا الأسطول البرتغالي علي الانسحاب خائباً[3]، ولما كانت الحرب التي دارت بين سفن "مصطفي بن بهرام" وسفن البرتغاليين حربا تختلف عما اعتادوا عليه من قتال الأسطول الكَجراتي، فقد أثار هذا الأمر دهشتهم وانزعاجهم، وبعد انسحابهم من المعركة أرسلوا جواسيسهم ليعرفوا خبر هذه السفن، فلما علموا أنها لابن أخت الأمير "سلمان" خافوا وولوا هاربين، وبذلك أمنت "ديو" من اعتدائهم في هذه المرة[4].

(1) Gazetteer of The Bombay Presidency :History of Gujrat,p253.

(2) الآصفي: ظفر الواله، ج1، ص230. زين الدين المعبري: تحفة المجاهدين، ص99. أبي ظفر الندوي: أسطول كَجرات (1)، ص97، 983.

(3) زين الدين المعبري: تحفة المجاهدين، ص99، 100.

(4) الآصفي: ظفر الواله، ج1، ص230.

Denison Ross: The Portuguese in India and Arabia,p11.

لكن البرتغاليون لم يتنازلوا عن أطماعهم في السيطرة علي ميناء "ديو"، ووجهوا حملة للاستيلاء عليها في سنة 938هـ / 1532م، وقد وصلت الأخبار إلي السلطان "بهادر شاه" بوصول عدد كبير من سفن البرتغاليين محملة بالمدافع وغيرها من آلات الحرب للهجوم علي "ديو"، فتحرك السلطان علي الفور لقتالهم ، وعند وصوله إلي "كمبهايت"، وصل إلي علم البرتغاليين خبر قدوم السلطان "بهادر شاه" لقتالهم فولوا هاربين بدون الدخول في أي قتال، واستولي السلطان "بهادر شاه" علي أحد مدافعهم الكبيرة وأرسله إلي "محمد آباد[1]"، ويتضح من هذه الحملة علي "ديو" طمع البرتغاليين في الاستيلاء عليها، ولكن توقف هذا المشروع مؤقتاً بسبب وجود سلطان قوي علي عرش الكَجرات هو السلطان "بهادر شاه".

وقد عمل السلطان علي مساعدة مسلمي المليبار الذين استنجدوا به لإغاثتهم من اعتداء البرتغاليين عليهم، فقد تولي علي "كاليكوت" سامري ضعيف عقد صلحا مع البرتغاليين علي أن يبنوا قلعة في ميناء "شاليات[2]" الهام ، وقد بدءوا في بنائها في آخر ربيع الأول سنة 938هـ / 1531م، وهدموا مساجد المسلمين ومقابرهم لاستغلال أحجارها في البناء، ولمَّا اشتكي المسلمون إلي حاكم المدينة لم يجدوا لديه صدي لإغاثتهم، فاستغاثوا بالسلطان "بهادر شاه" لنجدتهم، وقد شجعهم علي ذلك وفاة السامري الذي باع للبرتغاليين المدينة وتولي أخوه الذي نقض الصلح بينه وبين البرتغاليين.

وقد أرسل السلطان "بهادر شاه" أموالا لمساعدة مسلمي المليبار ليخرجوا إلي الكَجرات لقتال البرتغاليين، كما أرسل هدايا عظيمة "للسامري"، وقد حملها "خواجة حسين سنجقدار

---

(1) الآصفي: ظفر الواله، ج1، ص226. محمد قاسم هندوشاه: فرشته، ص222. ملا عبد القادر نهاوندي: مآثر رحيمي، ص182. الهروي: طبقات أكبري، ج3، ص140. أبي ظفر الندوي: الأسطول الكَجراتي (2): صلة الكَجراتيين بالملاحة، ص59.

Gazetteer of The Bombay Presidency :History of Gujrat,p253.

Bayley: The Local Dynasties, Gujrat,p368,369.

(2)تبعد "شاليات" عن "كاليكوت" سبعة أميال تقريباً إلي الجنوب، وهي من مدن ساحل مليبار التجارية الهامة، ويقصدها عدد كبير من التجار العرب، كما يقطنها عدد كبير منهم. زين الدين المعبري: تحفة المجاهدين، ص98.

الرومي" وكنج علي مركار"، اللذان وصلا إلي "كاليكوت" في السادس عشر من ربيع الأول سنة 941هـ / 1534م، ولكن السامري كان قد عقد صلحا مع البرتغاليين فلم يستجب لنداء السلطان "بهادر شاه" في التعاون معه لقتالهم[1].

واستعداداً لقتال البرتغاليين أعد السلطان "بهادر شاه" مائة سفينة مشحونة بالسلاح ، وكان هذا الأسطول راسياً في "ديو" عندما لجأ السلطان "بهادر شاه" إليها هرباً من "همايون شاه"، وكان قد فقد أمله في النصر فأمر بإحراق الأسطول خوفاً من وقوعه في يد "همايون شاه"، وبعد تدمير الأسطول الكَجراتي عجزت سلطنة الكَجرات عن التصدي لأطماع البرتغاليين في "ديو[2]".

وقد استطاع البرتغاليون تحقيق أطماعهم في بناء قلعة لهم في جزيرة "ديو" مستغلين حرب السلطان "بهادر شاه" مع السلطان "همايون شاه" ، وكان السلطان "بهادر شاه" قد تراجع أمامه وتحصن في قلعة "ديو"، وقد انتهز البرتغاليون هذه الفرصة وأمدوا السلطان "بهادر شاه" بالسفن اللازمة لحربه، وتظاهروا بالدخول في خدمته، وطلب منهم السلطان "بهادر شاه" أن يمدوه بخمسمائة من فرسانهم ليكونوا مدداً له في حربه ضد "همايون شاه"، ولكن قائدهم طلب في مقابل ذلك أن يهب لهم السلطان قطعة من الأرض في جزيرة "ديو" لتكون مركزاً تجارياً لهم، فوافق السلطان "بهادر شاه" علي طلبه، فشرعوا علي الفور في تحديد مكان لهم وعملوا علي تحويطه، وبناء قلعة به بأمر من قائدهم "فيكروي نون دي كونها" ولكنهم لم ينفذوا وعدهم مع السلطان "بهادر شاه" في إرسال الفرسان الذين طلبهم[3]، وقد ذكرت

(1) زين الدين المعبري: تحفة المجاهدين، ص98، 99.
(2) الاصفي: ظفر الواله، ج1، ص243.
(3) الآصفي: ظفر الواله، ج1، ص251. زين الدين المعبري: تحفة المجاهدين، ص101.
Fuat Sezgin: The Islamic World in Foreign Travel Accounts,vol 79: Mughal India According to European Travel Accounts,p6.
Longworth Dames: The Portuguese and Turkes in The Indian Ocean,p16.
Oldham,W: Sidi Ali Shelebi in India (1554- 1556A.D), Edited by Fuat Sezgin ,Islamic Geography, vol.16, Reprinting of Studies on The Works of The Ottoman Admiral Sidi Ali, Frankfurt,1992,p450.
Stanley Lane Poole: Medieval India Under Mohammedan Rule,p177,178.
Wolseley Haig: The Cambridge History of India, Vol. III,p334.
Gazetteer of The Bombay Presidency :History of Gujrat,p256.

هذه القصة عند صاحب "ظفر الواله"، وقد أضاف صاحب "تحفة المجاهدين" أن السلطان "بهادر شاه" في معاهدته مع البرتغاليين أعطاهم مينائي "باسين[1]" و"مهائم[2]".

وقد ذكر صاحب "مرآت سكندري" نفس القصة ولكن بأسلوب مختلف، حيث يقرر أنه بعد هزيمة السلطان "بهادر شاه" أمام السلطان همايون شاه" وفراره إلي "ديو" وتحصنه بقلعتها انتهز البرتغاليون هذه الفرصة للتقرب للسلطان "بهادر" وقدموا له خدماتهم، عارضين عليه الذهاب إلي أي ميناء لهم علي الساحل الهندي إن احتاج لهذا الأمر، ولما اطمأنوا إلي ثقة السلطان "بهادر شاه" بهم عرض قائدهم علي السلطان "بهادر شاه" أن تجارهم يترددون علي ميناء "ديو" وليس لهم وكالة بها لتخزين بضائعهم فطلبوا من السلطان منحهم مكاناً بجزيرة "ديو" بمقدار جلد ثور واحد ليقيموا عليه وكالتهم، فوافقهم علي ذلك، وقد تمكن السلطان "بهادر شاه" بعد ذلك من استعادة الكَجرات من جنود "همايون شاه"، وانتهز البرتغاليون فرصة غياب السلطان عن جزيرة "ديو" واستولوا علي مكان بها بمقدار جلد ثور، وشرعوا في بناء قلعة لهم به[3].

علي أي حال نستخلص من الروايتين نجاح البرتغاليين في تأسيس قلعة لهم في جزيرة "ديو"، وشرعوا علي الفور في شحنها بالسلاح والجنود، وعندما وصلت هذه الأخبار إلي السلطان "بهادر شاه" غضب وصمم علي طردهم من جزيرة "ديو"، وقد خرج بهذا الهدف من "أحمد آباد" إلي "ديو"، وعند وصوله إليها عسكر بجيشه عند قلعة "كوكاته"[4]، وأرسل حاجبه "صفي الملك نور محمد خليل" علي رأس قوة كبيرة من ستين إلي سبعين ألف فارس إلي قبطان البرتغاليين، ومعه رسالة يعاتبهم فيها علي خروجهم عن اتفاقيتهم معه، وقد حاول

(1) تقع قلعة "باسين" بجوار مدينة "نوساري" شمال "بومباي"، وقد أسسها البرتغاليون كقاعدة لهم في الكَجرات سنة 941هـ / 1534م، واستمرت مركزاً لنشاطهم حتي سنة 1152هـ / 1739م.
www.answers.com/topic

(2) زين الدين المعبري: تحفة المجاهدين، ص101.

(3)Bayley: Bayley: The Local Muhammdan Dynasties, Gujarat p394,395.

(4) تقع قرية "كوكاته" علي ساحل جزيرة "ديو".

Bayley: OP.Cit,p395.

القبطان أن يستميل "صفي الملك" إليه، فبالغ في استقباله وتعظيمه، وأقام له مجلس شراب استطاع في أثنائه أن يعرف خطة السلطان "بهادر شاه" تجاهه، حيث أخبره بعزم السلطان علي فتح القلعة التي بنوها[1].

وقد أرسل القبطان إلي نائب ملك البرتغال علي الهند في ذلك الوقت "دي كونها" بخبر استرجاع "بهادر شاه" ملكه وعزمه علي أخذ القلعة منهم، ولتدارك الموقف قدم "دي كونها" علي الفور إلي ميناء "ديو" ووضع حيلة ماهرة للتخلص من السلطان "بهادر شاه"، فأرسل إليه يخبره بمجيئه لتقديم التهنئة بالفتح، ولكنه مريض ولا يستطيع المثول بين يدي السلطان، وقد نقل الأمير "نور محمد خليل" هذه الرسالة إلي السلطان، الذي صدق هذا الادعاء، وقرر الذهاب لمقابلة القبطان، في الوقت الذي أحكم فيه "دي كونها" خطته، وأمر رجاله بالاستعداد للإجهاز علي السلطان "بهادر شاه" لأنهم إن لم يفعلوا ذلك اليوم فسيقضي عليهم غداً، ويطردهم من قلعتهم في "ديو" لإخلالهم بالاتفاق الذي كان بينهما[2].

وقد استخف السلطان "بهادر شاه" بالبرتغاليين لشدة ثقته بنفسه، أو رغبة منه في استرضائهم مع عدم توقعه الغدر منهم، وخرج في سفينة مع قلة من رجاله لا يزيدون علي العشرة، ولم يدع أحداً منهم يحمل سلاحاً مبالغة منه في إظهار إخلاصه وحسن نواياه تجاه قبطان البرتغاليين، وقد حاول وزراء السلطان وأمراؤه المخلصين إثناءه عن هذا العمل المتهور، ولكنه صمم علي قراره، فحاولوا إقناعه بأخذ قوة من الرجال معه لحمايته، ولكنه رفض هذا الاقتراح أيضاً.

وهنا نجد روايتين حول كيفية قتل البرتغاليين للسلطان "بهادر شاه":

الرواية الأولي: وردت في "مرآت سكندري" ومفادها أن قبطان البرتغاليين عندما علم بقدوم السلطان "بهادر شاه" إليه في قلة من رجاله اطمأن ورسي بسفينته بجوار القلعة لاستقبال السلطان، وقد فرش البرتغاليون مكان استقبال السلطان بالسجاد الحرير المزين

(1) الآصفي: ظفر الواله، ج1، ص251، 252.

Bayley: OP.Cit,p393,394.

(2) الآصفي: ظفر الواله، ج1، ص251، 260، 261.

بالحلي الذهبية والفضية، وخرج البرتغاليون من القلعة للقاء السلطان علي الشاطئ باستقبال عظيم، وعندما نزل السلطان من سفينته نثروا الذهب والفضة تحت قدميه، وقدم القبطان أطباق الذهب والجواهر إلي السلطان واستقبله بشرف وخضوع عظيمين، وبعد أن اطمأن السلطان أبرزوا بنادقهم وأطلقوا نيرانها علي السلطان الذي أدرك خديعتهم فهرب إلي قاربه علي الشاطئ، ولكنهم استطاعوا قتله بالسيف قبيل وصوله إليه، كما قتلوا من كان معه من الأمراء، وكانت هذه الفاجعة في الثالث من رمضان 943هـ/الرابع عشر من فبراير 1537م[1].

الرواية الثانية ذكرها "الآصفي" و"زين الدين المعبري" و"أبو الفضل"، ومفادها أنه لما أصر السلطان "بهادر شاه" علي الخروج للقاء "دي كونها" وليس معه إلا قلة من رجاله ، دخل بسفينته بين صفين من سفن البرتغاليين، وخرج له "دي كونها" وهو متمارض واستقبله وأدخله سفينته، ولكن لاح للسلطان "بهادر شاه" منه دلائل غدره فقام ليغادر السفينة ، لكن القبطان أصر علي أن يُري السلطان هداياه قبل مغادرته له، فأشار إليه السلطان أن يرسلها إليه ودخل سفينته، فأمر "دي كونها" رجاله بإطلاق المدافع علي سفينة السلطان الذي ثبت للقتال هو ومن معه حتي قتل بضربة رمح أصابته في صدره فسقط علي أثرها في البحر، كما قتل من كان معه من رفاقه، إلا خواجه "صفر الرومي" الذي استطاع النجاة بأعجوبة، وكان هو الشاهد الوحيد علي واقعة مقتل السلطان "بهادر شاه[2]".

وقد أيد هذه الرواية غالبية مؤرخي التاريخ الإسلامي للهند، وإن اختلفوا معها في تفصيل بسيط وهي موت السلطان "بهادر شاه" غرقاً، فعندما أدرك غدر البرتغاليين به عزم علي مغادرة السفينة فأمر القبطان البرتغالي بإبعاد سفينتهم عن سفينته فسقط السلطان في البحر فأطلق عليه البرتغاليون السهام حتي عجز عن الصعود إلي سطح المياه وغرق[3].

(1) Bayley: Bayley: The Local Muhammdan Dynasties, Gujarat,p396,397.

(2) الاصفي: ظفر الواله، ج1، ص261، 262. زين الدين المعبري: تحفة المجاهدين، ص102.
Beveridge.H: The Akbar Nama, vol. 1, p322,333.
Wolseley Haig: The Cambridge History of India, Vol. III,p334.
Gazetteer of The Bombay Presidency :History of Gujrat,p256.

(3) شاه أبي تراب ولي: تاريخ كَجرات، ص34، 35. محمد قاسم هندوشاه: تاريخ فرشته، ص224. ملا عبد القادر نهاوندي: مآثر رحيمي، ص187. الهروي: طبقات أكبري، ج3، ص144.

ويمكننا أن نرجح الرواية الثانية لاجتماع غالبية المصادر عليها، وإن اختلفوا في تفاصيل الحادثة، ويمكننا أن نعلل سبب اختلافهم بأن مقتل السلطان "بهادر شاه" ومن كان معه من أصحابه. إلا "خواجه صفر الرومي". يعني عدم وجود شهود عيان للحادث، مما أدي إلي تعدد الروايات طبقاً لما سمعه كل مؤرخ من المعاصرين للأحداث، وبمقتل السلطان "بهادر شاه" وطد البرتغاليون أقدامهم في "ديو"، وحصنوا قلعتهم بها، وقد أمر "عماد الملك" أمراء وعمال "جونكَره" و"ديو" بضبط البلاد والحفاظ عليها من أي اعتداء يقوم به البرتغاليون، وعاد بالجيش إلي "أحمد آباد[1]".

ولم تقتصر خسارة سلطنة الكَجرات علي مقتل السلطان "بهادر شاه" ونجاح البرتغاليون في بناء قلعة علي أرض جزيرة "ديو"، وإنما تعدي الأمر إلي إحراق السلطان "بهادر شاه" لمائة سفينة من أسطوله أثناء حربه مع السلطان "همايون شاه" وذلك خوفاً من وقوعها في أيدي السلطان "همايون شاه"، وكان هذا الأمر خسارة كبيرة للأسطول الكَجراتي الذي بلغ في عهد السلطان "بهادر شاه" أوج قوته بما أعده من سفن جديدة في ميناء "كمباي"، وبعد تدمير هذه السفن ضعف الأسطول الكَجراتي ولم تقم له قائمة بعد ذلك[2]، وأرجح أن هذا الضعف هو السبب في محاولة السلطان "بهادر شاه" التفاوض مع البرتغاليين لعلمه بما أصاب قوته البحرية من ضعف لا يمكنه من محاربتهم وطردهم من "ديو"، وكان هذا الأمر الأخير هو السبب في هلاكه.

علاقة السلطان "بهادر شاه" بالعثمانيين:

ترجع علاقة السلطان "بهادر شاه" (932هـ / 1526م : 943هـ / 1536م) بالدولة العثمانية إلي فترة حربه مع الإمبراطور "همايون شاه" عندما قرر الاستعانة بالسلطان العثماني "سليمان القانوني[3]" لمواجهة هذا الخطر المحدق به، وفي سبيل ذلك أرسل وزيره "آصف

(1) الآصفي: ظفر الواله، ج1، ص263.

(2) أبي ظفر الندوي: الأسطول الكَجراتي (2): صلة الكَجراتيين بالملاحة، ص59، 60.

(3) يعد السلطان "سليمان القانوني" (927هـ /1520م: 974هـ / 1566م) من أشهر سلاطين الدولة العثمانية، أرتقي العرش وهو في الخامسة والعشرين من عمره بعد وفاة والده السلطان "سليم الأول"، وقد سمي بالقانوني لنجاحه في وضع قواعد ونظم للدولة العثمانية حتي وصلت في عهده إلي أوج عظمتها. روبير مانتران: تاريخ الدولة العثمانية، ج1، ص215، ترجمة بشير السباعي، ط1، القاهرة، 1993م.

خان" بحريمه وخزانته إلي مكة، ومعه هدايا قيمة إلي السلطان "سليمان" مع رجاء بأن يمد إليه يد المساعدة، ولكن استغاثة "بهادر شاه" وصلت للسلطان العثماني متأخرة بعد مقتله. أي "بهادر شاه". علي يد البرتغاليين[1].

ولا يمكننا الحديث عن علاقة السلطان "بهادر شاه" بالدولة العثمانية بدون أن نشير إلي الأتراك العثمانيين الذين التحقوا بخدمة السلطان "بهادر شاه" وخلفائه ، والذين من أهمهم الأمير "مصطفي بن بهرام" ابن أخت الأمير "سلمان" . الذي اصطحب الأمير "حسين الكردي" في حملته علي البرتغاليين في الهند، ومعه عتيق خاله الخواجا "صفر الرومي" ، وقد صعد نجم الأخير في فترة سلطنة السلطان "محمود شاه الثالث"، ولقب "خداوندخان"، ومن الأمراء الآخرين الذي جاءوا صحبته "قرا حسن" الملقب "جهانكير خان" في سلطنة "محمود شاه الثالث"، و"مصطفي القرماني" الملقب "عادل خان القرماني" في عهد السلطان "أحمد شاه"، و"إسماعيل جركس" الملقب "أسد خان"، وقد أصبح لهم جميعاً شأن عظيم بالكَجرات[2].

أما عن سبب قدومهم إلي الكَجرات والتحاقهم بخدمة السلطان "بهادر شاه" فيرجع إلي الظروف التي أحاطت بهم أثناء خدمتهم في اليمن مع الأمير "سلمان" الذي نجح في السيطرة علي جزء منها أثناء حملة السلطان "الغوري" علي اليمن، وقد ظل بها حتي بعد سقوط دولة المماليك واستيلاء الدولة العثمانية علي مصر، وتوليه الأمير "خير الدين" علي مصر الذي تجهز بحملة للاستيلاء علي اليمن، ولكي يتمكن من ذلك قتل الأمير "سلمان" سنة 937هـ / 1530م.

وقد غضب الأمير "مصطفي" وعمل علي الأخذ بثأره فقتل الأمير "خير الدين"، وتولي بعده الإمارة علي اليمن، وانضم إليه أتباع "خير الدين"، ولكن ما لبث والده "بهرام" المقيم

(1) أحمد عبد الحليم مصطفي: أصول التاريخ العثماني، ص98، ط2، دار الشرق، 1413هـ / 1993م.
Dobwell: The Cambridge History of India,p14.
Longworth Dames: The Portuguese and Turkes in The Indian Ocean,p14,15.
Oldham,W: Sidi Ali Shelebi in India,p450.

(2) الآصفي: ظفر الواله، ج1، ص217.

في "أستنبول" أن أرسل يخبره بقدوم الوالي الجديد إلي اليمن، وينصحه بالفرار إلي الكَجرات قبل وصوله، ولهذا السبب خرج "مصطفي" إلي الكَجرات مصطحباً معه أتباعه ومن تبعه من أتباع "خير الدين".

وعند وصوله إلي "ديو" استقبله واليها "ملك طوغان بن ملك إياز" بترحاب وكرم شديد ولبي جميع مطالبه، وكتب إلي السلطان "بهادر شاه" بشأنه،فأرسل يستدعيه وقربه إليه، فقد تميز "مصطفي بن بهرام" بالكياسة والدهاء والظرف وحسن البيان، هذا بالإضافة إلي خبرته الحربية العالية وخاصة في سلاح المدفعية، وهو ما كان الجيش الكَجراتي في حاجة إليه في ذلك الوقت خاصة مع حروب السلطان "بهادر شاه" الخارجية، وكان لصفات "مصطفي" العالية بالإضافة إلي انتصاره علي البرتغاليين في "ديو" ما جعل السلطان "بهادر شاه" يقربه إليه ولا يعمل إلا بمشورته في حروبه، وقد منحه لقب "رومي خان[1][2]".

وقد أهدي "رومي خان" السلطان "بهادر مدفعين عظيمين أحدهما كان الأمير "سلمان" قد صبه للسلطان "سليمان" وسماه "ليلي"، والثاني صبه "مصطفي" للسلطان "بهادر" وسماه "المجنون"، فسر السلطان "بهادر شاه" بهديته وأقطعه إقطاعاً كبيراً يمتد من ميناء "سورت" حتي "مهايم"، كما أضاف إليه "ديو" بعد أن أخذها من "ملك طوغان"، وكان ذلك أحد أسباب ضعف هذا الميناء المهم ، ونجاح البرتغاليين في بناء قلعة علي جزيرة "ديو"، وقد قوي السلطان "بهادر شاه" بهذين المدفعين العظيمين في حروبه، وخاصة في حصار "چيتور[3]".

سياسة السلطان "محمود شاه" تجاه الحملة العثمانية:

عقد السلطان "سليمان القانوني" عزمه علي إرسال حملة لطرد البرتغاليين من الكَجرات وسواحل المحيط الهندي، ومن أهم أسباب هذه الحملة:

---

(1) "رومي خان" هو لقب الأمير المسئول عن سلاح المدفعية. الهروي: طبقات أكبري، ج1، ص10.

(2) الآصفي: ظفر الواله، ج1، ص218، 219. النهروالي: البرق اليماني، ص54،55. أبي ظفر الندوي: الأسطول الكَجراتي (2): صلة الكَجراتيين بالملاحة، ص59.

Denison Ross: The Portuguese in India and Arabia,p10: 12.

Gazetteer of The Bombay Presidency :History of Gujrat,p254.

(3) الآصفي: ظفر الواله، ج1، ص220.

Bayley: The Local Muhammdan Dynasties, Gujarat,p369.

السبب الأول: أنه في أثناء حرب السلطان "بهادر شاه" مع "همايون شاه" فكر في الاستعانة بالدولة العثمانية لنصرته، وكان قد أرسل وزيره "آصف خان" بحريمه وخزانته إلي الحجاز، حاملاً رسالة وهدايا إلي السلطان العثماني "سليمان الأول"، ولكن الوزير قابل السلطان العثماني بعيد وفاة السلطان "بهادر[1]"، وكان لمقتل السلطان "بهادر شاه" بأيدي البرتغاليين رد فعل كبير لدي السلطان العثماني "سليمان الأول" (927هـ /1520م: 974هـ / 1566م) الذي تأثر جداً بسماع هذه الفجيعة وهي مقتل سلطان مسلم علي أيدي البرتغاليين، ولذلك عزم علي إرسال حملة لطردهم من مياه المحيط الهندي، ولكنه لم يقدم علي هذه الخطوة إلا سنة 945هـ / 1538م عندما أمر "سليمان باشا[2]" بتجهيز أسطول كبير في "السويس" لحملته ضد البرتغاليين[3].

السبب الثاني: الحلم الذي ورثه عن والده السلطان "سليم خان"[4] المتمثل في غزو الهند عن طريق الكَجرات، وفي سبيل تحقيق هذا الحلم أمر بإعداد أسطول ضخم في "السويس"،

(1) زين الدين المعبري: تحفة المجاهدين، ص104.

(2) "سليمان باشا" من أمراء السلطان "سليم العثماني" ، وقد اصطحبه في فتح مصر، وعينه والياً عليها سنة 932هـ / 1525م، وحكمها إحدى عشر عاماً، وفي أثناء ولايته وصله أمر السلطان "سليمان القانوني" بفتح اليمن والتجهز لحرب البرتغاليين في الكَجرات، فشرع علي الفور في تجهيز أسطول كبير في "السويس" في 11 رجب 945هـ / 20 ديسمبر 1536م ، وظل حاكماً علي مصر حتي رحيله علي رأس الأسطول إلي الهند في 15 محرم 945هـ / 10 يونيو 1538م.

Denison Ross: The Portuguese in India and Arabia,p13.

Wolseley Haig: The Cambridge History of India, Vol. III,p336.

(3) النهروالي: البرق اليماني، ص70.

Allan, The Cambridge Shorter History of India,p317.

Denison Ross: OP.Cit,p13.

Oldham,W: Sidi Ali Shelebi in India,p450.

(4) السلطان "سليم الأول" (918هـ / 1512م: 927هـ / 1520م) خلف السلطان "بايزيد الثاني" علي عرش الدولة العثمانية، وقد كان قائداً حربياً ممتازاً، وإدارياً نزيهاً، وسنيا متمسكا بعقيدته، هذا بالإضافة إلي ثقافته الواسعة، ومن أهم إنجازاته نجاحه في القضاء علي سلطنة المماليك وضم أملاكها إلي الدولة العثمانية. روبير مانتران: تاريخ الدولة العثمانية، ص207، 208.

ولكنه توفي قبل إتمام تجهيزه، وقد عمل خليفته السلطان "سليمان" علي تحقيق هذا الحلم، فأكمل تجهيز الأسطول، وأسند قيادته إلي "سليمان باشا"، ومما أطمع السلطان "سليمان" علي تحقيق حلمه اضطراب أحوال الهند في ذلك الوقت عقب غزو الإمبراطور "بابر" لها، ومما أطمعهم في الكَجرات علي وجه الخصوص ضعف سلاطين الكَجرات في ذلك الوقت بعد مقتل السلطان "بهادر شاه"، وتراجع قوة الكَجرات التي كانت تلي سلطنة "دلهي" في القوة والثراء، ولذلك طمع السلطان "سليمان" في الاستيلاء عليها كمدخل للاستيلاء علي الهند، وليضع قدمه علي الساحل الهندي كخطوة ضرورية لإقامة إمبراطورية هندية(1).

ويمكننا أن نرجح سبب رغبة السلطانين "سليم" و"سليمان" في إقامة إمبراطورية هندية إلي قيامهما بفرض حصار اقتصادي علي الدولة الصفوية بقفل أسواق بلاد الشام وتركيا أمامها، وقد أدي هذا الأمر إلي تعطيل الطريق البري للتجارة مع الشرق، مما أدي إلي رغبة الدولة العثمانية في القضاء علي خطر البرتغاليين في الهند ليحلوا محلهم لفتح طريق التجارة البحري مع الشرق بعد تعطيل الطريق البري(2)، ومن أجل هذا الغرض أمر السلطان "سليمان" بإعداد أسطول ضخم يفوق المهمة الرئيسية التي أرسل بشأنها وهي طرد البرتغاليين من الهند، ولتنفيذ هذا المخطط تحالف مع سلاطين الكَجرات لطرد البرتغاليين من المياه الشرقية ليحل محلهم(3).

السبب الثالث: من أهم الأسباب التي دعت السلطان "سليمان" إلي التفكير في إرسال حملة إلي الهند لطرد البرتغاليين هي ازدياد نشاط البرتغاليين في المحيط الهندي والبحر العربي والبحر الأحمر، فوجه جهوده للتصدي لهذا الخطر البرتغالي المتزايد، فاستولي الأسطول العثماني علي مداخل البحر الأحمر والخليج العربي(4)، وقد عمل السلطان العثماني علي

(1) Denison Ross: OP.Cit,p13.
Longworth Dames: The Portuguese and Turkes,p13.

(2) روبير مانتران:تاريخ الدولة العثمانية، ص216.

(3)Denison Ross: The Portuguese in India and Arabia,p13,14.
Longworth Dames: The Portuguese and Turkes,p13, 14.

(4) النهروالي: البرق اليماني، ص70. أحمد فؤاد متولي: تاريخ الدولة العثمانية، ج1، ص29، 30 ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، (د.ت). أحمد عبد الرحيم: أصول التاريخ العثماني، ص98. علي سلطان: تاريخ الدولة العثمانية، ص101، مكتبة طرابلس العلمية، دمشق،1991. يسري أحمد عبد الله زيدان: التاريخ السياسي ومظاهر الحضارة في الشرق الإسلامي زمن المماليك والعثمانيين، ص182.

الاستيلاء علي اليمن تمهيداً لحملته علي الهند ولتأمينها من الخطر البرتغالي، وقد تمت عدة محاولات لفتحها حتي استطاع "سليمان باشا الخادم" فتحها سنة 945هـ / 1539م، وقد اتخذت الدولة العثمانية اليمن نقطة ارتكاز للتصدي للخطر البرتغالي في المحيط الهندي، ومنع وصوله إلي البحر الأحمر والحجاز[1].

السبب الرابع: استغاثة الملك السامري بالدولة العثمانية، فقد أصبح للبرتغاليين السيادة البحرية علي المحيط الهندي وتحكموا في تجارته وحركة الملاحة به، وفي سبيل ذلك عملوا علي القضاء علي القوة الهندية التي كان لها السيطرة السابقة علي المحيط الهندي لأكثر من خمسة قرون، وهي قوة السامري حاكم "كاليكوت" الذي أقام علاقات وثيقة مع سلاطين الكَجرات اللذين اعترفوا بسيطرة "السامري" علي الجزء الجنوبي من سواحل المحيط الهندي، ولم تفت هزيمة الأسطول المصري من عزم السامري علي استعادة مكانته وسيطرته من البرتغاليين، وذلك علي الرغم من هجمات البرتغاليين الشرسة علي موانئه، وقد أعاد "السامري" تأسيس أسطوله ولم يتوقف عن شن هجومه علي البرتغاليين، ولكنه أدرك أنه لن يستطيع القضاء علي قوة البرتغاليين وحده وإنما عليه التحالف مع سلاطين الكَجرات والدولة العثمانية لتحقيق هذا الهدف[2].

وقد تحرك الأسطول العثماني المكون من مائة وخمسين سفينة مشحونة بالمدافع والأسلحة والعساكر الذين بلغ عددهم أربعة آلاف جندي تحت قيادة "سليمان باشا"، وقد أبحروا من "السويس" سنة 932هـ / يونيو 1538م بأمر من السلطان العثماني "سليمان القانوني" لمحاربة البرتغاليين في السواحل الهندية، وعندما وصلت الحملة العثمانية إلي "جدة" عاث الجند فيها فساداً، ونهبوا أسواقها، واتجهت الحملة بعد ذلك إلي اليمن حيث نجح "سليمان باشا" في ضمها إلي الدولة العثمانية، بعد غدره بحاكمها "عامر بن داود الطاهري[3]" الذي فتح له بلده

(1) يحي بن الحسين: غاية الأماني في أخبار القطر اليماني،ص768. يسري أحمد عبد الله زيدان: التاريخ السياسي ومظاهر الحضارة في الشرق الإسلامي زمن المماليك والعثمانيين، ص183، 184.

(2) Panikar: India and Indian Occean,p44,45.

(3) السلطان "الملك المظفر عامر بن عبد الوهاب" آخر سلاطين بني طاهر علي اليمن، اشتهر بتقواه وحسن خلقه، حكم تسع وعشرين سنة، توفي في الثاني من ربيع الآخر سنة 922هـ / 1516م. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج8، ص124.

مرحباً عندما بلغه قصده محاربة البرتغاليين، ولكن "سليمان باشا" غدر به وقتله واستولي علي بلده[1]، وقد قام "سليمان باشا" بالتصدي للبرتغاليين الذين هاجموا السواحل اليمنية، ولكن ألصقت المجازر التي ارتكبها باليمن والطريقة التي استولي بها عليها سمعة سيئة به، وقد امتدت هذه السمعة إلي الكَجرات فأحدثت وقعاً سيئاً لدي سلطانها وأمرائها وشعبها ترتب عليه عدم تعاونهم معه للقضاء علي البرتغاليين[2].

وقد وصل "سليمان باشا" بأسطوله الضخم إلي "مظفر آباد[3]" بالقرب من ميناء "ديو" سنة 945هـ / 1538م[4]، واتخذها قاعدة له للهجوم علي البرتغاليين، وكان يلي علي "ديو" في ذلك الوقت خواجه "صفر سلماني[5]" الملقب "خداوندخان"من قبل السلطان "محمود شاه الثالث" (943هـ / 1536م : 961هـ / 1553م)، وكان "خواجه صفر" علي علاقة صداقة وسلام بالبرتغاليين، ولكن بوصول الأسطول العثماني إلي "ديو" تغيرت سياسته تجاه البرتغاليين وأظهر موالاته للعثمانيين، فأرسل هداياه إلي "سليمان باشا"، وعرض كافة خدماته عليه[6]، وقد أراد الخروج للقائه والترحيب به ولكن أحد أصدقائه حذره من غدره وسفكه

(1) زين الدين المعبري: تحفة المجاهدين، ص104. النهروالي: البرق اليماني، ص70، 71، 80. يحي بن الحسن: غاية اليماني في أخبار القطر اليماني، ص767، 768. أحمد عبد الرحيم: أصول التاريخ العثماني، ص98. روبير مانتران: تاريخ الدولة العثمانية، ص307. علي سلطان : تاريخ الدولة العثمانية، ص101.

(2) النهروالي: البرق اليماني، ص80. يحي بن الحسن: غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، ص 768. أحمد عبد الرحيم: أصول التاريخ العثماني، ص98. علي سلطان : تاريخ الدولة العثمانية، ص101.

(3) تقع "مظفر آباد" علي مقربة من ميناء "ديو". الآصفي: ظفر الواله، ج1، ص266.

(4) الآصفي: المصدر نفسه، ج1، ص266.

Wolseley Haig: The Cambridge History of India, Vol. III,p336.

(5) "خواجه "صفر سلماني" هو عتيق "سلمان الريس"* ، وفد "خواجه صفر" إلي الكَجرات سنة 939هـ / 1532م صحبة "مصطفي بن بهرام" الملقب "رومي خان"، وقد اصطحب "خواجه صفر" السلطان "بهادر شاه" في خروجه للبرتغاليين في "ديو"، وهو الوحيد الذي نجي من القتل من أصحاب السلطان "بهادر شاه" الذين اصطحبوه في هذه الواقعة، وقد رقي في عهد السلطان "محمود شاه الثالث" إلي حاكم "سورت"، ومنح لقب "خداوند خان"، وقد لعب دوراً هاماً في كلا الحصارين الأول والثاني "لديو"**. *النهروالي:البرق اليماني، ص82.

**Denison Ross: The Portuguese in India and Arabia,p17.

Fuat Sezgin: The Islamic World in Foreign Travel Accounts,vol 79: Mughal India According to European Travel Accounts,p7.

(6) النهروالي: البرق اليماني، ص82.

Denison Ross: The Portuguese in India and Arabia,p16.

Dobwell:The Cambridge History of India,p15.

Longworth Dames: The Portuguese and Turkes ,p16.

Wolseley Haig: The Cambridge History of India, Vol. III,p336.

للدماء، وذكره بما ارتكبه من مجازر في اليمن من الغدر بحاكمها وقتله عند استقباله له، فخاف "خداوند خان صفر" من لقائه، ولكنه لم يمتنع عن تقديم خدماته وهداياه إليه عن بعد، وكلما طلب "سليمان باشا" لقاءه اعتذر عن ذلك[1]، وقام "خداوند خان" بإرسال رجال حامية "ديو". البالغ عددها خمسمائة جندي. إلي خدمة "سليمان باشا" بسلاحهم وعتادهم[2].

وقد استطاعت القوة المتحدة المكونة من الأسطول العثماني بقيادة "سليمان باشا" وحامية ميناء "ديو" بقيادة "خواجه صفر" أن يحتلوا الساحل الشمالي لجزيرة "ديو" الذي يفصلها عن الأرض الرئيسية التي بها ميناء "ديو" والذي يقع قبالة الجزيرة، وكانت قلعة البرتغاليين تحتل الركن الشرقي من الجزيرة، أما المدينة المحلية فتحتل الركن الغربي منها، وسكانها خليط من المسلمين والهندوس[3]، وقد قام البرتغاليون بتحصين قلعتهم في "ديو" تحصيناً جيداً، وزودوها بالعديد من المدافع، وحفروا حولها خندقاً عميقاً، تم حفره من خلال صخرة مصمتة من الحجر الرملي، وهذا الخندق يتصل بالبحر ليؤدي وظيفة أخري هي كونه ممراً مفتوحاً للسفن القادمة إلي القلعة، وكان علي هذا الجانب من القلعة المواجه للبحر أن يتحمل وطأه هجوم مدفعية الأسطول التركي[4].

وكان الهجوم الأول للعثمانيين في سنة 945هـ / يونيو 1538م علي ضاحية بالجزيرة تعرف لدي المسلمين باسم "بندر الترك" ولدي البرتغاليين باسم "فيلا ديس روميس"، وكان هجوماً ناجحاً استسلمت علي أثره الحامية البرتغالية البالغ عددها ثمانين رجلاً، ولكن القلعة الرئيسية للبرتغاليين واصلت الصمود أمام حصار الأسطول العثماني، وكان يلي عليها آنذاك "أنطونيو سيلفيريا" علي رأس حامية صغيرة ولكنها متحدة أمام الخطر المحدق بها، وقد عد هذا الحصار من أكبر الأحداث البطولية في التاريخ البرتغالي في الهند، فحتي النساء والأطفال عملوا بتفان جنباً بجنب مع الرجال، وذلك في مقابل الشقاق الذي كان بين الأتراك والكَجراتيين[5].

(1) النهروالي: البرق اليماني، ص82.

(2) Denison Ross: OP.Cit ,p16.
Dobwell: OP.Cit,p15.
Longworth Dames: OP.Cit,p16.

(3) Longworth Dames: OP.Cit,p16.

(4) Fuat Sezgin: OP.Cit,,p6.

(5) Dobwell:The Cambridge History of India,p15.
Longworth Dames: The Portuguese and Turkes in The Indian Ocean,p16.

ولم تصل أخبار هذا الحصار إلي "جوا" مركز قيادة البرتغاليين في الهند في وقتها، فقد منع الأسطول العثماني السفن البرتغالية من مغادرة الميناء، ولكن حدث أن لاحظ قائد الأسطول البرتغالي "فاس ميجول" في أثناء إبحاره إلي "ديو" في آخر أغسطس محاصرة الأسطول التركي لقلعة "ديو"، وقد تنبه الأسطول التركي وحاول اللحاق به، ولكنه استطاع الهرب لاعتياد البرتغاليين علي الإبحار في المحيط الهندي بينما لم يعتد الأتراك الملاحة إلا في البحر المتوسط ، علي أي حال استطاع "ميجول" إبلاغ مركز القيادة في "جوا" بحصار الأسطول العثماني "لديو" ليتحركوا لنجدة حاميتها(1).

وعلي الرغم من رجحان موقف الأسطول العثماني إلا إنه لم يستطع إحراز أي نتائج في استعادة "ديو" من البرتغاليين وسبب ذلك يرجع إلي الشقاق الذي دب بين العثمانيين والكَجراتيين، أما عن أسباب هذا الشقاق فترجع إلي:

أولاً: جفاء طبع "سليمان باشا" ، وما وصل إلي سمع الكَجراتيون عما ارتكبه في اليمن من فظائع فخافوه وتحاشوه، وخاصة لمعاملته لهم كأنه جاء إلي الكَجرات غازياً وليس مدافعاً، كما أن "سليمان باشا" لم يستطع أن يمنع رجاله من التخريب في المدن الكَجراتية، حتي أنهم نهبوا منازل أمراء الكَجرات بمجرد أن وضعوا أقدامهم في "ديو(2)".

ثانياً: وقوع نفور بين "سليمان باشا" وبين السلطان "محمود شاه الثالث" (943هـ / 1536م : 961هـ / 1553م)، بسبب تصرفه المتعالي مع "أولو خان" الذي أرسله السلطان إليه بمدد من الرجال والسلاح، وكان "أولو خان" من كبار رجال السلطنة في ذلك الوقت، وكان يلقب "شق دار" أي حافظ نصف المملكة، وكان تحت يديه خمسون ألف فارس، وعندما دخل علي "سليمان باشا" احتقره واستقله لارتدائه ملابس الهنود ولقصر قامته، فلم

(1) Longworth Dames: OP.Cit,p17.

(2) الآصفي: ظفر الواله، ج1، ص266. زين الدين المعبري: تحفة المجاهدين، ص104.
Denison Ross: The Portuguese in India and Arabia,p14,16.
Longworth Dames: OP.Cit,p18.
Wolseley Haig: The Cambridge History of India, Vol. III,p336,337.

يقم له ولم يأذن له في الجلوس، وظل واقفاً إلي أن انتهي من تقديم رسالة السلطان إليه، وعلي أثر خروجه من عنده ذهب للسلطان شاكياً إليه ازدراءه له فغضب السلطان من فعله.

ومما زاد الطين بلة إرسال "سليمان باشا" خلعة من قفطان وسيف إلي السلطان "محمود شاه"، فلما قدمها الرسول إلي السلطان تعجب منها واستشاط غضباً ، وأخبر الرسول أن هذه الخلعة إذا كانت من عند السلطان "سليمان" قبلها، وإن كانت من عند سيده فليس من رتبته أن يرسل إليه بخلعة ، وعندما رجع الرسول بالخلعة والرسالة إلي "سليمان باشا" استشاط غضباً وتأسف لعدم قتله "أولو خان"، وكان لصدور هذا الفعل من "سليمان باشا" ما نبه السلطان "محمود شاه" وأمراءه إلي نيته المبيتة لغزو الكَجرات[1].

وقد تأكد ذلك عندما كتب "خداوند خان" إلي السلطان "محمود شاه الثالث" بما رآه من أفعال "سليمان باشا" وسأله عما يأمره به من التصرف معه، وقد اجتمع السلطان بمستشاريه وأجمعوا علي إهماله، وكتب السلطان إلي "خداوند خان" بأن يقوم بما يري فيه الصلاح، فامتنع "خداوند خان" عن إمداده بالمؤن والذخيرة حتي أوشك عتاد "سليمان "باشا" ومؤنه علي النفاذ[2]، وعندما تحرك لجلب المؤن من "مظفر آباد[3]" أمتنع أمراء الكَجرات وشعبها عن التعامل معه[4].

وعلي الرغم من ذلك استطاع الأسطول العثماني إلحاق أضرار بالغة بمقدمة القلعة، وكان من نتيجة الحصار أن نقصت مؤن الحامية البرتغالية في "ديو"، فقرر الأدميرال التحرك لجلب المؤن قبل انتهاء موسم الرياح الموسمية، ولكن أثناء تحركه قام الأسطول العثماني بمهاجمته وفقد أربعة مراكب، وانتقل القتال علي طول الساحل، وقد استمر هذا القتال البري ثلاثة أسابيع عاد الأسطول العثماني بعدها إلي محاصرة القلعة الحصار الفعلي الذي امتد شهراً،

(1) النهروالي: البرق اليماني، ص82، 83.

(2) الآصفي: ظفر الواله، ج1، ص266.

(3) Longworth Dames: The Portuguese and Turkes in The Indian Ocean ,p118.,19.

(4) Denison Ross: The Portuguese in India and Arabia,p16.

قام الأسطول العثماني خلال هذه الفترة بالهجوم علي القلعة عدة مرات بدون إحراز أي نتائج، وفي هذه الأثناء وصل للبرتغاليين إمدادات قليلة لم تسعفهم، وفي الوقت الذي أوشكت فيه مؤنهم علي النفاذ، واقترب الحصار من أن يؤتي نتائجه ، رحل الأسطول التركي فجأة من سواحل الكَجرات بعد أن أوشك أن يحقق مأربه[1].

ويرجع سبب هذا الرحيل المفاجئ للأسطول التركي إلي ما وجده "سليمان باشا" من تغير من جانب "خداوند خان" وتقاعسه عن نصرته وحجزه للمؤن والذخيرة عنه، كما لجأ "خداوند خان" لحيلة لإخراج "سليمان باشا" من الكَجرات، فأرسل إليه يخبره بوصول أخبار بقدوم أسطول برتغالي كبير لقتال الأسطول العثماني، فخاف "سليمان باشا" من مواجهتهم، وخاصة مع تفرق جنوده بعد أن استمالهم أمراء الكَجرات للدخول في خدمتهم بتقديم رواتب أعلي مما يأخذونه من الخدمة في الأسطول العثماني، فاضطر في النهاية إلي الرحيل عن سواحل الكَجرات، ولم يهتم حتي بأخذ أسلحته التي كانت بالساحل حتي أنه ترك مدفعين عظيمين حملا بعد ذلك إلي "جونكَره[2]"، ويرجح أن سبب ترك "سليمان باشا" لأسلحته ومدافعه الأخبار التي وردت عن اقتراب أسطول برتغالي ضخم من "ديو[3]".

وعندما علم "خداوند خان" برحيل "سليمان باشا" أرسل "مجاهد خان" في أثره متظاهراً بالخروج لمدده، وهو في الحقيقة للتحرز منه خوفاً من عودته للهجوم علي سواحل الكَجرات، وقد تخلف عن اللحاق "بسليمان باشا" بعض جنوده الذين انضموا لبلاط سلطان الكَجرات، منهم "فرحشاد التركي" الذي لقب "فتح جنك خان"، و"ناصر الحبشي" الذي لقب "حبش خان" وعين علي شرطة "أحمدآباد[4]".

---

(1) Longworth Dames: OP.Cit,p19.

Panikar: India and Indian Occean,p46.

(2) الآصفي: ظفر الواله، ج1، ص 266. زين الدين المعبري: تحفة المجاهدين، ص21، 104. النهروالي: البرق اليماني، ص83: 85.

Beveridge.H: The Akbar Nama, vol. 3,p40, 41.

(3) Denison Ross: The Portuguese in India and Arabia,p16.

(4) الآصفي: ظفر الواله، ج1، ص 267.

وفي ذلك الوقت وصل "جارسيا دي نورنها". ابن أخي "ألبوكيرك". إلي "جوا" ليحتل وظيفة نائب ملك البرتغال في الهند، وكان مزوداً بأسطول من إحدى عشرة سفينة، وبمجرد وصوله إلي "جوا" عمل علي جمع أسطول قوي من عشرين سفينة، وشحنهم بالجنود واتجه لنجدة حامية قلعة "ديو"، ولكن وصلته أخبار عودة الأسطول العثماني ، وقد وصل "جارسيا" إلي قلعة "ديو" في الثاني من نوفمبر من نفس السنة، وشرع في تجديدها وتحصينها، ودخل في مفاوضات مع سلطنة الكَجرات انتهت بتوقيع معاهدة سلام بين الطرفين في سنة 946هـ / مارس 1539م، وكان من شروط المعاهدة بناء جدار بين القلعة والمدينة، وأن يُدفع للبرتغاليين ثلث عائدات جمارك ميناء "ديو[1]".

ويتضح من ذلك سبب فشل الحملة العثمانية الأولي في طرد البرتغاليين من ميناء "ديو" بالكَجرات ويتمثل في الشقاق الذي وقع بين العثمانيين والكَجراتيين، وذلك بسبب سلوك "سليمان باشا" رئيس الحملة تجاه الكَجرات حيث تعامل معها كفاتح لها، مما أزعج أمراءها وشعبها وأدي إلي نفورهم منه وعدم تعاونهم معه، بل إنهم بعد مغادرته الكَجرات فضلوا إقامة معاهدة سلام غير متكافئة مع البرتغاليين عن التعاون أو طلب المساعدة من العثمانيين لطرد البرتغاليين من أرضهم.

وعلي الرغم من توقيع معاهدة السلام بين البرتغاليين وسلطنة الكَجرات إلا إن الأخيرة لم تتوقف عن تحصين موانئها خوفاً من اعتداءات البرتغاليين عليها، من ذلك بناء "خداوند خان صفر" قلعة عظيمة في ميناء "سورت" الهام سنة 949هـ / 1542م[2]، جمع لبنائها مهندسين وبنائين مهرة من أصحاب الخبرة، وقد حاول البرتغاليون تعطيل بناء هذه القلعة بشن عدة حملات علي "سورت"، ولكنهم في كل مرة كانوا يرتدون خائبين.

وبعد فشل محاولاتهم الحربية لجأوا إلي محاولة رشوة "خداوند خان" بمبالغ طائلة ليصرف نظر عن بناء القلعة، ولكنه رفض كل محاولاتهم وأتم بناء القلعة التي تمتعت بحصانة

(1) Denison Ross: OP.Cit,p16,17.

Dobwell: The Cambridge History of India,p15,16.

(2) ورد في "طبقات أكبري" أن بناء القلعة كان سنة 947هـ / 1540م. الهروي: طبقات أكبري، ج2، ص87.

كبيرة، فقد بناها من الحجر وصب الحديد الصلب بين أحجارها لتزداد أسوارها صلابة، وبني علي كل برج من أبراج القلعة غرفة للمراقبة، وحفر حول القلعة خندقاً من جهة اتصالها بالبر عرضه عشرون متراً، وجدار القلعة المتصل بالخندق عرضه خمسة وثلاثون متراً، وارتفاعه عشرون متراً، وقد حمل "خداوند خان" المدافع السليمانية التي كانت في "چونكَره" ونصبها في قلعة "سورت"، مما زاد من حصانتها ومناعتها أمام اعتداءات البرتغاليين المتكررة عليها[1]، وبذلك نري أن سلطنة الكَجرات لم تستسلم لاعتداءات البرتغاليين علي موانئها في عهد السلطان "محمود شاه الثالث" وإنما حاولت التصدي لهذه الاعتداءات بل وحاولت استرداد "ديو".

حملة السلطان "محمود شاه الثالث" علي "ديو":

تعد حملة السلطان "محمود شاه الثالث" لاسترداد قلعة "ديو" من البرتغاليين سنة 953هـ / 1546م من أهم حلقات الصراع بين سلطنة الكَجرات والبرتغاليين، وعلي الرغم من أهمية هذه الحملة إلا إن كثيراً من المصادر مثل "مرآت سكندري" و"فرشته" و"طبقات أكبري" تغضي الطرف عنها اللّهم إلا "ظفر الواله" الذي أورد لنا وصفاً تفصيلياً للحملة، هذا من ناحية المؤرخين المسلمين أما المؤرخون البرتغاليون فقد وصفوا هذه الحملة وصفاً مفصلاً، وذلك لأثرها الكبير علي البرتغاليين في كل من الهند والبرتغال، كما تحدثوا بإسهاب عن صمود المحاصرين في قلعة "ديو" التي عدت من أهم مراكزهم التجارية في البحار الشرقية، وتحدثوا بصفة خاصة عن الأعمال البطولية التي قام بها نساء البرتغاليين الذين شاركوا مشاركة فعالة في الحرب بجانب الرجال، وذلك لنقص عدد المقاتلين في القلعة في بداية الحصار[2].

أما عن أسباب هذه الحملة فترجع إلي وجود نزاعات دائمة بين سلطنة الكَجرات والبرتغاليين في قلعة "ديو" منذ توقيعهما معاهدة السلام في سنة 946هـ / مارس 1539م،

(1) محمد قاسم هندوشاه: تاريخ فرشته، ص226، 227. الهروي: طبقات أكبري، ج2، ص86، 87.
Abdul – Qadir Ibn-I-Muluk Shah: Muntakhabu-T-Tawarikh,vol.2,p150.
(2) Fuat Sezgin: The Islamic World in Foreign Travel Accounts,vol 79: Mughal India According to European Travel Accounts p3.

وقد أدت هذه الخلافات إلي هدم البرتغاليين للجدار الفاصل بين قلعتهم والمدينة، والذي كان قد بني بناء علي شرطهم في الاتفاقية[1]،هذا بالإضافة إلي أن سلطان الكَجرات وأمراءه لم ينسوا مقتل السلطان "بهادر شاه" علي يد البرتغاليين، وتحكمهم في ميناء كَجراتي مهم كان يدر سابقاً عوائد هائلة للسلطنة التي فقدت كثيراً منها بعد نجاح البرتغاليين في إقامة قلعتهم في "ديو[2]".

أما عن السبب المباشر لهذه الحملة فيرجع إلي استيلاء العمال البرتغاليين علي صندوق مليء بالذهب كان علي متن سفينة "لخداوند خان" الذي تأثر جداً لفقده، وعلي الرغم من مطالبة موظفيه للعمال برد الصندوق إلا إنهم أنكروا رؤيتهم له، ولكن الوزير كان واثقاً من أخذ العمال البرتغاليين له، فصمم علي القيام بعمل لاسترداد ذهبه، وكان ذلك في الوقت الذي عزم فيه السلطان "محمود شاه" علي طرد البرتغاليين من "ديو" بعد أن تحرر من سيطرة أوصيائه ، وأصبحت له الكلمة العليا في الكَجرات، وقد عهد إلي "خداوندخان" بالتجهيز لحملة لفتح "ديو[3]".

وبناءً علي هذا الأمر استعد "خداوند خان" لهذه الحملة فكتب إلي وكيله "بسورت" بتجهيز العسكر والأسلحة . وخاصة المدافع . والخزانة وأدوات الحصار وإرسالها إليه، كما استدعي أمراءه من إقطاعياتهم ، ولحق به نائب السلطنة "مجاهد خان" بعسكره، وتحرك "خداوندخان" بالجيش وعسكر عند "نوانكر[4]" حيث ترك بها الأثقال، وتقدم برجاله لحصار قلعة "ديو" التي لم يكن بها إلا مائتي جندي برتغالي[5].

وكانت قلعة "ديو" علي درجة علية من التحصين ، وكان علي الجيش الكَجراتي أن يقوم بالحصار وحده بدون مساعدة بحرية ، ولذلك كان حصار القلعة من جهة البر فقط ، وذلك

(1) Dobwell:The Cambridge History of India,p16.

(2)Fuat Sezgin: OP.Cit,p9.

Wolseley Haig: The Cambridge History of India, Vol. III,p340.

(3) الآصفي: ظفر الواله، ج1، ص274.

Wolseley Haig: OP.Cit, Vol. III,p340.

(4) تبعد "نوانكر" ثلاثة فراسخ عن "ديو". الآصفي: ظفر الواله، ج1، ص257.

(5) الاصفي: المصدر نفسه، ج1، ص275.

علي النقيض من الحصار السابق للأسطول التركي بقيادة "سليمان باشا" والذي كان من جهة البحر بتدعيم من القوات البرية الكَجراتية، ولاقتصار هذه الحملة علي الحصار البري فقط عد هذا نقطة ضعف كبيرة فيها، ووضع علي عاتق الجيش الكَجراتي عبئا أكبر، فكان عليهم أن يتعاملوا مع خط التحصينات المواجه للمدينة والذي يشتمل علي ثلاثة حصون: هي حصن سان جون الذي يقع علي رأس الممر الضيق بين المدينة والبر الرئيسي، وحصن سان توماس في الجهة المقابلة، وأخيراً حصن سان جيمس، وكان يفصل هذه الحصون الثلاثة عن القلعة خندق عميق مملوء بالمياه ومتصل بالبحر لتوصيل الإمدادات إلي القلعة عن طريق البحر وقت الحصار[1]، ويتضح من هذا كله مدي الصعوبات التي كان علي الجيش الكَجراتي أن يواجهها وحده لاقتحام القلعة.

وقد بدأ "خواجا "صفر" الحصار في سنة 953هـ / أبريل 1546م ومعه ثمانية آلاف جندي، مدعمين بسلاح المدفعية القوي المكون من ستين مدفعا كبيرا، و بآلات الحصار وخبرائها العسكريين المتخصصين، وقد اختار "خواجا "صفر" وقتاً مناسباً للحصار مع بداية موسم المطر والعواصف مما يعني توقف الحركة الملاحية في المحيط الهندي وتعطل وصول أي إمدادات للقلعة وقت الحصار[2].

وقد استمر تراشق الطرفان بالمدافع، و"خداوندخان" يتقدم بجيشه خطوة بخطوة إلي أن انتهي إلي الخندق المحيط بالقلعة فردمه، وعبر فوقه حيث حاصر القلعة نفسها، وكان قد أنفق علي تجهيز الحملة من خزانته الخاصة، فأرسل إلي الوزير "أفضل خان" يطلب منه نفقة الجيش لنفاذ خزانته، ولكن نظراً لتدهور أوضاع السياسة الداخلية في الكَجرات في ذلك الوقت وسيطرة الوزراء علي السلطان، فقد تقاعس الوزير عن إرسال النفقات، واكتفي بالخروج بالسلطان إلي "ديو" ليقفا موقف المتفرج من الأحداث، وعادا بعد ثلاثة أيام، ولكن هذا التقاعس من جانب الوزير لم يفت في عضد المحاصرين، فقد كتب "خداوند خان" إلي وكيله الأمير "بحرخان" بإمداده بالأموال اللازمة لنفقة العسكر، فأرسل إليه علي الفور ما يلزمه من

(1) Fuat Sezgin: The Islamic World in Foreign Travel Accounts,vol 79: Mughal India According to European Travel Accounts,p6.

(2) Fuat Sezgin: OP.Cit,p20.

المال، وقد استمر "خداوند خان" متقدماً في الحصار ومدافعه تضرب القلعة حتي مات أكثر من فيها من ضرب المدافع ومن الأمراض التي تفشت بينهم ، هذا بالإضافة إلي نقص المؤن[1].

وعلي الجانب البرتغالي كان "دوم جويو ماسكارينها" هو الحاكم البرتغالي علي قلعة "ديو" في ذلك الوقت، وعندما علم بمخطط "خواجه صفر" ضد القلعة عمل علي جمع الإمدادات اللازمة، وأرسل إلي نائب ملك البرتغال في "جوا" "جارسيا دي نورونها" يخبره بأمر الحصار ويطلب منه إرسال الإمدادات إليه بسرعة، ولكن "جارسيا" أهمل طلبه ولم يرسل الإمدادات للقلعة، ولكن ما لبثت الأوضاع أن تغيرت بوصول نائب جديد لملك البرتغال علي الهند هو "دي كاسترو" في سبتمبر سنة 952هـ / 1545م، وقد اشتهر بنجاحه في تحقيق أحد أكبر انتصارات البرتغاليين في الهند وهي التصدي للهجوم الشرس الذي قام به الجيش الكَجراتي علي قلعة "ديو"، وقد قدم معه ابناه "دو ألفارو" و"دوم فرناندو" اللذان كانا في شرخ الشباب واتسما بشجاعة فائقة، وقد شاركا بدور فعال في الحرب.

وقد اتخذ "دي كاسترو" إجراءات سريعة لتدعيم المحاصرين في "ديو"، فقد كتب إلي الحامية البرتغالية في "باسين" . لأنها الأقرب إلي "ديو" . بتقديم مساعداتها للمحاصرين، وكانت حامية قلعة "ديو" لم تتجاوز المائتين، وذلك في مقابل قوة الجيش الكَجراتي التي بلغت عشر آلاف رجل، وقد وصلت إمدادات للحامية البرتغالية في سنة 953هـ / الثامن عشر من مايو 1546م تتكون من تسع سفن محملة بالإمدادات والمقاتلين تحت قيادة "دوم فرناندو دي كاسترو"، وهذه الإمدادات رفعت عدد رجال الحامية إلي أربعمائة رجل إلا إنهم ظلوا أقل شأناً من الجيش الكَجراتي ليس في عدد الجنود فقط وإنما في المدفعية والأسلحة الأخري، ولذلك عمل "دي كاسترو" علي جمع الإمدادات الحربية اللازمة، ولما كانت خزانته خاوية فقد طلب مبالغ ضخمة من التجار مع وعد منه بتعويضهم، فقد كانت سمعته وشهرته لها دوي واسع بالهند[2]، ومن جهود "دي كاسترو" أيضاً للقضاء علي حصار

(1) الآصفي: ظفر الواله، ج1، ص275.

(2) Dobwell: The Cambridge History of India,p16.
Fuat Sezgin: The Islamic World in Foreign Travel Accounts,vol 79: Mughal India According to European Travel Accounts,p8,9.

الكَجراتيين لقلعة "ديو" محاولته تحويل انتباه سلطنة الكَجرات عن حصار "ديو" بقيامه بتحريض سلطان "دلهي" "شيرشاه السوري" بغزو الكَجرات، ولكن سفارته لم تقابل بالترحاب في بلاط "دلهي[1]".

وفي هذه الأثناء كان "خداوند خان صفر" متقدماً في الحصار، ولكن حدث أن أصابته طلقة مدفع توفي علي أثرها في الخامس والعشرون من جمادي الآخرة 953هـ / الرابع والعشرون من يوليو سنة 1546م[2]، وقد أجمع الجيش علي تولية ابنه "محرم" الملقب "رومي خان" مكانه في القيادة، وعضد هذا الرأي كبار الأمراء المشاركين في الحملة من أمثال "جهانكير خان" و"جهوجهار خان"، وقد قام "رومي خان" بدفع الجيش للعمل علي قدم وساق لفتح القلعة سائراً علي نهج والده.

وقد وضع "جهانكير خان" خطة لاقتحام القلعة، فأمر بنقب برج القلعة وحشوه بالبارود، وجمع "رومي خان" الجنود لاقتحام القلعة، وبعد انفجار البرج بمن فيه من الحامية تقاعس أمير الجيش "برهان الملك" عن اقتحام القلعة، ولكن "جهوجهار خان" تقدم للهجوم برجاله ليلاً، واستطاعوا الوصول حتي كنيسة "جيمس" بها، بل واقتحموا بعض المنازل وأسروا عدداً من النساء، ولكن واحدة منهن استطاعت باستخدام الحيلة إثارة انتباه حاكم القلعة "ماسكارينها" الذي جمع جنوده واستطاعوا تطويق قوة "جهوجهار خان" في الكنيسة والمنازل والقضاء عليهم[3].

---

(1) Fuat Sezgin: The Islamic World in Foreign Travel Accounts,vol 79: Mughal India According to European Travel Accounts,p9.

(2) الاصفي: ظفر الواله، ج1، ص275. أبي ظفر الندوي: الأسطول الكَجراتي (2): صلة الكَجراتيين بالملاحة، ص60، 61.

Denison Ross: The Portuguese in India and Arabia,p17.

Fuat Sezgin: OP.Cit,p21.

Wolseley Haig: The Cambridge History of India, Vol. III,p340.

(3) الآصفي: ظفر الواله، ج1، ص 276.

Fuat Sezgin: OP.Cit,p22,23.

Wolseley Haig: OP.Cit, Vol. III,p340.

وأخيراً استطاع "دي كاسترو" نائب ملك البرتغال الجديد علي الهند أن يرسل قوات كافية لتدعيم حامية القلعة التي أصبحت في ذلك الوقت حفنة من الجرحي والمرضي والجائعين، ففي نهاية شهر يوليو من نفس السنة أرسل القائد البرتغالي الشهير علي رأس سبع سفن، وبعد إقلاعه بثلاثة أيام أرسل أسطول آخر إلي "ديو" بقيادة ابنه الأكبر "ألفارو دي كاسترو"، ويتكون أسطوله من تسع عشرة سفينة، وقد اتجه أولاً إلي "باسين" للحصول علي المزيد من الإمدادات، وعندما وصل إلي "ديو" بلغ أسطوله أربعين سفينة ، وقد حملت هذه السفن عدداً كبيراً من الأسلحة والجنود والقادة البرتغاليين الذين أرادوا المشاركة في هذه الحرب الشديدة الأهمية للوجود البرتغالي في "ديو".

وكان وصول "ألفارو" بهذه القوة الضخمة نقطة تحول في تاريخ الحصار الثاني "لديو"، فقد كادت القلعة أن تسقط في يد الجيش الكَجراتي بعد أن وصلت لمرحلة سيئة ، فقد تهدمت جدرانها، وأصبحت حصونها وحوائطها أنقاضاً، وقتل خمسة وثلاثون من البرتغاليين غير مائة من الجرحي، فكان وصول هذه القوة إنقاذاً عاجلاً لها حول دفة المعركة لصالح البرتغاليين، فقد قام البرتغاليون بترميم حوائط القلعة ، وكان "دوم ألفارو" يقوم بالعمل بنفسه معرضاً حياته للخطر، وفي هذه الأثناء كان "رومي خان" غير مدرك لهذا الخطر معللاً نفسه بقرب النصر، ولذلك عمل علي بناء مدينة جديدة في الجزيرة، واضعاً أساس القصور الجميلة بها له ولأمرائه، حتي سرت الإشاعات بقرب انتصار الجيش الكَجراتي[1].

ورغم كل الإمدادات التي وصلت للحامية البرتغالية في قلعة "ديو" إلا إنها ظلت أقل في العدد والتسليح أمام الجيش الكَجراتي، ولذلك عقد "دي كاسترو" اجتماعاً في "جوا" مع كبار القادة لبحث سفره بإمدادات أكبر لحسم الموقف، وقد وافقوه علي ذلك ، وبالفعل تحرك "دي كاسترو" في العشرين من شعبان سنة 953هـ / السابع عشر من أكتوبر سنة 1546م علي رأس أسطول من اثنتي عشرة سفينة كبيرة بجانب عدد كبير من السفن الصغيرة، وعند

(1) Fuat Sezgin: The Islamic World in Foreign Travel Accounts,vol 79: Mughal India According to European Travel Accounts,p25:28.

وصوله إلي "باسين" عمل "دي كاسترو" علي شن حرب قرصنة بحرية ضد موانئ الكَجرات للضغط علي سلطان الكَجرات لسحب جيشه المحاصر لقلعة "ديو".

فقام القائد البرتغالي "دوم مانويل دي ليما" بالخروج علي رأس ست سفن حربية للاستيلاء علي عدد من سفن التجار المسلمين المغادرة لخليج "كمباي"، وقتل من عليها من المسلمين واستولي علي السفن، وعند عودته إلي "باسين" أرسله الحاكم علي رأس قوة من ثلاثين سفينة لتدمير موانئ الكَجرات وإشاعة الرعب بين الأهالي والتجار، وقد قام "دوم مانويل" بمهمته خير قيام فقد استطاع الدخول ليلاً إلي نهر "تابي" وهناك فوجئ السكان بحرق قصورهم ومنازلهم، كما أعملوا السيف في كل من وجدوه من المسلمين ، ولم يبقوا إلا علي رجل واحد أرسلوه إلي بلاط السلطان في "أحمد آباد" ليصف له ما يقوم البرتغاليون به مع أعمال التدمير والقتل في موانئ الكَجرات، وقد واصل "دوم مانويل" أعماله التخريبية علي الساحل الكَجراتي ، فقام بتدمير مدينة "هانسوت"[1] بإشعال النار في مبانيها الجميلة وإعمال القتل في السكان من المسلمين والهندوس، وأخيراً بعد كل هذا التدمير لحق "بدي كاسترو" الذي تحرك إلي "ديو" ووصلها فيالتاسع عشر من رمضان / السابع من نوفمبر من نفس السنة.

وبوصول "دي كاسترو" ارتفعت معنويات الحامية التي استقبلته استقبالاً حافلاً، وقبل دخوله القلعة اجتمع بكبار القادة في سفينته في عرض البحر حيث اتفقوا علي إدخال السفن إلي القلعة سراً بعيداً عن أعين الجيش الكَجراتي لاستغلال عنصر المفاجأة، وببحث الموقف لم يكن أمام البرتغاليين إلا أن يخوضوا معركة مفتوحة مع الجيش الكَجراتي بعد أن أصبحت قلعتهم أنقاضاً، فعمل "دي كاسترو" علي الاستعداد لخوض هذه المعركة، وقسم قواته فأسند المقدمة إلي "ماسكارينها" وتحت قيادته خمسمائة من الجنود البرتغاليين، وألف ومائة جندي من غير البرتغاليين، وكان مع "دوم ألفارو" نفس العدد من البرتغاليين الذين قدموا معه،

(1) تقع مدينة "هانسوت" عند مصب نهر ناربدا بالقرب من مدينة "بهروج"، وقد تميزت بمبانيها الجميلة التي تدل علي ثراء سكانها، وكان يؤمها كثير من التجار.

Fuat Sezgin: The Islamic World in Foreign Travel Accounts,vol 79: Mughal India According to European Travel Accounts,p32.

وكان مع "دوم مانويل" أكثر من خمسمائة جندي، أما باقي القوات التي بلغت ثمانمائة جندي برتغالي غير عدد كبير من الجنود المليباريين فكانت تحت قيادة "دي كاسترو" نفسه، وقد بدأت المعركة الفاصلة في الحادي عشر من نوفمبر من نفس السنة، وهي تعد من المعارك الشهيرة في تاريخ البرتغاليين في الهند[1].

ويذكر "الآصفي" أن تعداد قوة البرتغاليين في هذه المعركة كان ثلاثين ألف جندي جاءوا مع "دي كاسترو" ولكن بمراجعة هذا الرقم مع المصادر البرتغالية نجد فيه مبالغة كبيرة، وقد أمر "دي كاسترو" السفن بأن تحمي الساحل وتطلق المدافع علي المهاجمين، وذلك في الوقت الذي ضعفت فيه قوة جيش الكَجرات بعد مقتل "خداوند خان" و"جهوجهار خان"، وانقسم الجيش قسمين قسم يرأسه "برهان الملك" ويتبعه الجنود الكَجراتيين من أهل البلد ، وقد تقاعس "برهان الملك" عن القتال، والقسم الثاني يرأسه "رومي خان" وتحت يده الجنود الأغراب، وكان غالبيتهم من الأتراك، ورغم تحمس "رومي خان" للقتال إلا إنه كانت تنقصه الخبرة اللازمة التي كانت متوفرة في "جهانكير خان" الذي تقدم بمن معه من الجنود للقتال، واضطر "برهان الملك" وأتباعه إلي أن يتبعوه[2].

وعند تقابل جيش الكَجرات مع جيش البرتغاليين في الصباح كان البرتغاليون يفوقون المسلمين في العدد والعدة، هذا بالإضافة إلي تخاذل "برهان الملك" وهروبه عند التقاء الجيشين، فكشف بذلك ظهر الجيش الكَجراتي لمدافع البرتغاليين الذين نزلوا بها من سفنهم إلي الساحل، فانحصر بذلك الجيش الكَجراتي بين نارين، فتراجعوا إلي أحد جسور القلعة الذي انهار بهم فسقط أغلبهم في خندق القلعة وماتوا، واستطاع "جهانكير خان" الخروج بأعجوبة من الخندق من طريق كان يعرفه سابقاً، ولم ينج من جيش الكَجرات في هذه الموقعة إلا أربعة آلاف وخمسمائة، بالإضافة إلي الذين انسحبوا قبل بدأ القتال، وقتل "رومي خان" وعدد من كبار قادة الجيش الكَجراتي[3]، وقد قدر المؤرخون البرتغاليون عدد القتلي المسلمين بخمسة آلاف، وستمائة أسير، وذلك في مقابل مقتل ثلاثين من البرتغاليين وإصابة ثلاثمائة،

(1) Fuat Sezgin: OP.Cit,p30: 33.

(2) الآصفي: ظفر الواله، ج1، ص277

(3) الآصفي: ظفر الواله، ج1، ص282.

Wolseley Haig: The Cambridge History of India, Vol. III,p340,341.

ويبدو بوضوح عنصر المبالغة في تقدير المؤرخين البرتغاليين لعدد القتلي المسلمين مقارنة بعدد قتلاهم، وهذا بالتأكيد لتعظيم انتصارهم.

وقد تفرغ "دي كاسترو" بعد ذلك لإعادة بناء قلعة "ديو" فكان البناء الجديد أكثر حصانة وقوة واتساعا من سابقه لما أضافوه من خبرتهم التي اكتسبوها أثناء فترة الحصار الطويل، وقد احتاج بناؤه لكثير من الأموال والعمالة، ولصرف أنظار سلطنة الكَجرات عن عملية إعادة بناء القلعة أمر "دي كاسترو" القائد "مانويل دي ليما" بالقيام مرة ثانية بعمليات القرصنة علي طول خليج "كمباي" وحرق كل المدن والقري الواقعة عليه، وقام "مانويل" بتنفيذ الأمر وأبحر بثلاثين سفينة لتدمير كل مدن خليج "كمباي"، ولكنه تجنب مدينة "جوجها" لتمركز القوات الكَجراتية الفارة من موقعة "ديو" بها، ولكن اضطر للجوء إليها بعد أن فاجأته عاصفة قوية، وعندما وصلت أخبار قدومه إلي المدينة فر كل السكان والجنود إلي الجبال، وقد اقتحمها "دي مانويل" وأحرق المنازل والمساجد والمعابد بعد أن قام رجاله بالسطو عليها، واستطاع القبض علي الفارين وأوقع عقابه عليهم.

وقد توجه بعد ذلك إلي "قندهار" فقام بإحراقها، وعلي الرغم من تقديم الأهالي كل ممتلكاتهم في مقابل عدم قتلهم إلا إنه استولي علي ممتلكاتهم وقتلهم، وبنفس الطريقة دمر العديد من المدن في طريقه، وإن كانت أسماء هذه المدن لم ترد في المصادر البرتغالية، إلا إن أنقاضها وأشلاء سكانها احتفظت لسنوات عديدة بذكري هذا التدمير البشع.

ويتضح من ذلك مدي التدمير الذي ألحقه البرتغاليون بالمدن والشعب الكَجراتي ، هذا بالإضافة إلي تعطل تجارتهم وضياع ممتلكاتهم وأرواحهم، ولم ينقذ مدن الساحل الكَجراتي من قرصنة "دي مانويل" إلا وصول الأخبار بمهاجمة العثمانيين لقلعة البرتغاليين في "هرمز" فاتجه علي وجه السرعة للتصدي لهم، في الوقت الذي كان "دي كاسترو" قد انتهي من إعادة بناء قلعة "ديو" وأعلن نهاية الحرب وأمر بإعلان الأمان لكل سكان ساحل كامباي وجزيرة "ديو" لإعادة إعمارها من جديد، وبالفعل قدم عدد كبير من التجار الهندوس وسكنوا جزيرة "ديو[1]".

(1) Fuat Sezgin: The Islamic World in Foreign Travel Accounts,vol 79: Mughal India According to European Travel Accounts,p34: 39.

ويمكننا أن نرجع سبب هزيمة الجيش الكَجراتي وفشلهم في اقتحام قلعة "ديو" إلي سببين رئيسيين:

السبب الأول: هو ضعف سلطنة الكَجرات في ذلك الوقت، فلم يكن السلطان "محمود شاه الثالث" مثل سابقيه من سلاطين الكَجرات العظام، فلم يرث مقدرتهم وشجاعتهم الحربية النادرة، هذا بالإضافة إلي صغر سنه وسيطرة وزرائه علي مقاليد الأمور في المملكة، وقد رأينا تقاعس الوزير "أفضل خان" عن إرسال الأموال للمهاجمين، وإحجام "برهان الملك" عن خوض المعركة، وقد أدي هذا إلي انقسام الجيش الكَجراتي وعدم توحد قيادته وخاصة بعد وفاة "خداوند خان صفر"، وكان هذا الانقسام من أهم أسباب هزيمة الجيش الكَجراتي.

السبب الثاني: فهو عدم وجود أسطول كَجراتي يدعم الحصار البري الذي قام به الجيش، وقد مثل هذا الأمر خللاً كبيراً في تكنيك الحصار لقلعة مقامة علي الشاطئ، كما أنه أعطي فرصة لوصول الإمدادات إليها عن طريق البحر، وكان هذا الأمر هو الضربة القاصمة للجيش الكَجراتي، وذلك بوصول إمدادات قوية من "جوا" قاعدة البرتغاليين في الهند، وقد أدي هذا الأمر إلي تحول دفة المعركة لصالح البرتغاليين بعد أن كادت القلعة تقع في يد الجيش الكَجراتي.

الحملة الثانية للسلطان "محمود شاه" على قلعة "ديو":

انسحب "جهانكير خان" بمن بقي معه من الجند إلي "نوانكر"، ومنها عاد إلي "أحمد آباد" كسير القلب علي هذه الهزيمة المنكرة التي حلت بالجيش الكَجراتي، وعلي القواد العظام الذين قتلوا في هذه الحرب، وعندما اجتمع بالسلطان "محمود شاه الثالث" قص عليه ما حدث وهو يبكي من الحزن، وقد تأثر السلطان جداً لما حدث، وصمم علي تعويض هذه الهزيمة بالقيام بحملة أخري لفتح قلعة "ديو"، وكافأ "جهانكير خان" بترقيته إلي رئاسة سلاح المدفعية، ومنحه لقب "المجلس المنصور جهانكير خان"، وعهد إليه التجهيز لحملة أخري علي "ديو"، كما وزع الخلع علي من أبلي بلاءً حسناً في المعركة[1]، وفي مقابل ذلك عمل

(1) الآصفي: ظفر الواله، ج!، ص283.

علي محاسبة المقصرين فعزل الوزير "أفضل خان" عن منصبه لما ظهر منه من تقصير في الخدمة وفي الإنفاق علي الحملة، وولي مكانة "عبد الحليم بن حميد الملك" ولقبه "المجلس العالي خداوند خان[1]".

وبعد أن أصبح "جهانكير خان" رئيساً علي سلاح المدفعية أمر بصب المدافع للتجهيز لحملة أخري علي "ديو"، وسار العمل علي قدم وساق حتي أنه صب في عام واحد مائة مدفع، كما عمل علي جمع خشب "الساج" لبناء السفن الحربية[2]، وبذلك ظهرت حركة نشطة في عهد السلطان "محمود شاه الثالث" لإعادة بناء الأسطول الكَجراتي ، فقد عادت مصانع السفن الضخمة للعمل وخاصة في "كمباي" و"سورت" و"الدمن" و"بهروج"، وتم إنتاج خمسمائة سفينة في مدة قصيرة جداً لا تتجاوز بضعة أشهر، وبذلك أصبح للكَجرات أسطول قوي يدافع عن موانئها من اعتداءات البرتغاليين الشرسة[3].

كما أمر "جهانكير" حكام الموانئ بمنع البرتغاليين من التجارة أو السكن في موانئ الكَجرات، وعدم التعامل معهم ، وكذلك عدم خروج التجار المسلمين أو الهندوس للمتاجرة معهم "بديو" وبهذا الحصار الاقتصادي الذي فرضه علي "ديو" أصابها الخراب، في الوقت الذي عمرت فيه "نوانكر" التي قام بتحصينها وبني بها قلعة حصينة[4].

وفي سكرة انتصار البرتغاليين في "ديو" واستكمالاً لأعمال القرصنة التي قام بها "دوم مانويل" علي ساحل "كمباي" قرر حاكم قلعة "ديو" الجديد "جورج دي مينيزيس" الاستيلاء علي ميناء "بهروج" المهم، الذي اشتهر بتجارته الواسعة وموقعه المتميز، وكان ميناء "بهروج" من ضمن إقطاع "عماد الملك". أطلق البرتغاليون عليه اسم "مادري ملوكو". الذي كان من كبار أمراء الكَجرات في ذلك الوقت، وقد وصلت الأخبار للبرتغاليين. عن

(1) الآصفي: المصدر نفسه، ج1، ص285. أبي ظفر الندوي: الأسطول الكَجراتي (2): صلة الكَجراتيين بالملاحة، ص61.

(2) الآصفي: ظفر الواله، ج1، ص283.

(3) أبي ظفر الندوي: الأسطول الكَجراتي (2): صلة الكَجراتيين بالملاحة، ص61، 69.

(4) الآصفي: ظفر الواله، ج1، ص283.

طريق عدد من صيادي السمك المحليين. أن "بهروج" في ذلك الوقت خالية من حاميتها بعد أن أخذ "عماد الملك" كل جنوده معه في "أحمد آباد"، مما هيأ للبرتغاليين فرصة ملائمة لاقتحام المدينة.

وطبقاً لروايات المؤرخين البرتغاليين نجح "دي منيزيس" في التسلل بأسطوله إلي ميناء "بهروج" ليلاً بغفلة من أهلها الذين استيقظوا علي أعمال التخريب التي يقوم بها البرتغاليون من قتل السكان وإحراق منازلهم، وبوصول هذه الأخبار إلي "عماد الملك" هرع بقوة من خمسة آلاف فارس إلي مدينته التي فوجئ بتحولها إلي أطلال بعد أن وصل متأخراً لإنقاذها، فرجع إلي السلطان "محمود شاه" في "أحمد آباد" راجياً إياه أن يأمر بتجهيز حملة ضد "ديو" لمسح عار الهزيمة السابقة وللانتقام مما حل بمدينة "بهروج[1]".

ولكن "ظفر الواله" ذكر رواية مخالفة لرواية المؤرخين البرتغاليين مفادها أن البرتغاليين قاموا بالهجوم علي "بهروج" في شهر ربيع الأول سنة 954هـ / 1547م، وقد استطاعوا دخول قلعتها في غفلة من أميرها "علي خان سيد برانهر المندوالي"، وأحرقوا جزءً منها، وكانت "بهروج" عامرة بالسكان الذين قاتلوا البرتغاليين للدفاع عن مدينتهم حتي اضطروهم إلي الانسحاب إلي سفنهم، في الوقت الذي أطلقت مدافع برج القلعة نيرانها عليهم، واستطاعت إحراق بعض السفن، وقد ظلوا عدة أيام في سفنهم يحاولون النزول إلي الساحل وأهل المدينة قائمون لهم بالمرصاد، حتي استطاعوا النزول في غفلة من أهلها، وكان ذلك في الوقت الذي وصل فيه السلطان "محمود شاه الثالث" علي رأس جيشه، فتقدم لقتالهم واستطاع إلحاق الهزيمة بهم، واضطروا إلي الانسحاب إلي سفنهم حيث ولوا هاربين، وخرج أمير "بهروج" في أثرهم وأغرق بعض سفنهم، وقد عزل السلطان أمير "بهروج" لغفلته وتقصيره، وبذلك خابت أمال البرتغاليين في الاستيلاء علي ميناء "بهروج" الغني[2].

وبذلك نجد اختلافاً تاماً بين رواية المؤرخين البرتغاليين ورواية "ظفر الواله" فبينما يذكر المؤرخون البرتغاليون انتصارهم الساحق في "بهروج" وتدميرها ونجاحهم في الانسحاب

(1) Dobwell: The Cambridge History of India,p19.
Wolseley Haig: The Cambridge History of India, Vol. III,p341.

(2) الآصفي: ظفر الواله، ج1، ص286.

قبل قدوم أي جيش كَجراتي، نجد "ظفر الواله" يذكر انتصار الكَجراتيين بعد تدعيم من السلطان "محمود شاه الثالث" نفسه، ولا يمكننا إنكار رواية "ظفر الواله" ذلك المرجع الدقيق الذي عني بذكر تفاصيل وقائع الحرب بين البرتغاليين وسلطنة الكَجرات ، ولذلك يمكننا أن نرجح روايته، وذلك في مقابل مبالغة المؤرخين البرتغاليين وإخفائهم لهزيمتهم في "بهروج" حفاظاً علي سمعتهم الحربية في الشرق، هذا بالإضافة إلي وجود نقطة ضعف مهمة في رواية البرتغاليين تتمثل في خلو "بهروج" ذلك الميناء المهم من أي حامية عسكرية وهو أمر يصعب تصديقه وخاصة مع دأب البرتغاليين القيام بأعمال القرصنة علي موانئ الكَجرات في ذلك الوقت، فلا يعقل أن تخلو "بهروج" من حامية عسكرية لتأمينها.

وكان من أهم نتائج هجوم البرتغاليين علي "بهروج" قيام السلطان "محمود شاه الثالث" بحملة أخري علي "ديو" ربما لأنه تشجع علي هذا الأمر بعد انتصاره علي البرتغاليين في "بهروج" فعزم علي الخروج لطردهم من "ديو"، أو . طبقا لما ذكره المؤرخون البرتغاليون . للرد علي ما قاموا به في "بهروج"، هذا بالإضافة إلي تجهيزه لهذه الحملة منذ هزيمة الجيش الكَجراتي في موقعة "ديو" السابقة، لغسل عار هزيمة الجيش الكَجراتي السابقة في "ديو[1]".

وقد قام السلطان "محمود شاه" باستدعاء كل جنوده وأمرائه للاشتراك في هذه الحملة، وعند وصول أخبار الحملة إلي البرتغاليين في "ديو" خافوا وأرسلوا بهذه الأخبار إلي مركز قيادتهم في "جوا"، وهناك كانت أمام نائب الملك "دي كاسترو" مشكلة جمع الأموال للقيام بالحملة اللازمة لصد هجوم الجيش الكَجراتي، فأرسلت الحامية كثيراً من الأموال، كما قام نساء أغنياء البرتغاليين في "ديو" بإرسال مصاغهن، فقام "دي كاسترو" بالإعداد للحملة وأرسل إلي الحاميات البرتغالية في "چيول" و"باسين" بأن يستعدوا لتقديم المساعدة عند طلبها منهم، وقد غادر أسطول "دي كاسترو" "جوا" في 954هـ / نوفمبر 1547م، وكان يتكون من مائة وستين سفينة، كل منها تحت قيادة قائد برتغالي محنك من هؤلاء القادة "دوم ألفارو".

(1) الآصفي: ظفر الواله، ج1، ص286.

Dobwell: The Cambridge History of India,p19.

وقد اتجه الأسطول البرتغالي إلي "باسين" أولاً، وهناك وصلتهم الأخبار أن "قارا حسن"، زوج ابنة "خواجه صفر". معه عدد صغير من الحامية في قلعة "سورت"، فوجدها "دي كاسترو" فرصة عظيمة للاستيلاء علي هذا الميناء المهم، فوجه "دوم ألفارو" علي رأس ستين سفينة لمهاجمة "سورت"، وعند اقترابه من مينائها أرسل "دي مينيزيس" علي رأس قوة في ستة قوارب، ولكن حامية القلعة انتبهت لهم وقامت بقصفهم بالمدافع فاضطروا للانسحاب إلي سفنهم، وفشلت محاولة استيلائهم علي "سورت".

وبعد ذلك لحق "دوم ألفارو" بحملة أبيه المتجه إلي "ديو"، وقد وصلتهم الأخبار بعظم استعدادات جيش السلطان "محمود شاه الثالث" وضخامة عدده، وعلي الرغم من ذلك تقدم "دي كاسترو" إلي "ديو"، وهناك واجهته مشكلة رغبة حاكمها "ماسكرينهاس" في العودة إلي بلده، فقام بتعيين "لويز فالكو" محله، وقرر "دي كاسترو" إتباع سياسة القرصنة في معاودة مهاجمة الموانئ الكَجراتية لإرهاب سلطنة الكَجرات، فقام بمهاجمة ميناء "منجالور". القائم في شمال غرب ساحل شبه جزيرة كاثياوارا. وأحرقه، بينما لاذ سكانه بالفرار، كما أحرق سفن التجار الراسية في مينائه،وقام بنفس الشيء مع عدد من الموانئ الكَجراتية، وتوافد المتضررون إلي بلاط السلطان "محمود شاه" في "أحمد آباد" شاكين له ما حل بهم، وقد زاد هذا الأمر من إصرار السلطان علي القيام بحملته علي قلعة البرتغاليين في "ديو".

وفي ذلك الوقت كانت أخبار انتصار "دي كاسترو" قد وصلت إلي بلاط ملك البرتغال الذي قرر له مكافآت عظيمة منها عودته إلي بلاده، ولكن "دي كاسترو" حزن لهذا القرار، وما لبث أن مات كمداً علي مغادرته الهند سنة 955هـ / 1548م[1]، وقد عده المؤرخون البرتغاليون آخر حكامهم العظام في الهند، ومنذ ذلك التاريخ بدأت قوة البرتغاليين في الهند في التراجع والاضمحلال، كما بدأ نفوذهم في البحار الشرقية يضعف، وقد خلفه علي حكومة البرتغاليين في الهند عدد من النواب لم يكونوا في مثل قوته وخبرته[2].

(1) Fuat Sezgin: The Islamic World in Foreign Travel Accounts,vol 79: Mughal India According to European Travel Accounts,p44:47.

(2) Dobwell:The Cambridge History of India,p16,17.

وفي هذه الأثناء أرسل نائب الملك الجديد في "جوا" "فرانسيس أكسافير" سفيراً لسلطان الكَجرات محملاً بهدية قيمة من الذهب مع اعتذار حاكم البرتغال عما قد سلف منهم، ووعد بعدم الاعتداء علي سواحل الكَجرات مرة أخري، وكان السلطان "محمود شاه الثالث" قد عقد عزمه علي الاستمرار في الحملة، ولذلك لم يلق بالاً للرسول البرتغالي ولم يقبل هديته، ولكن تغير موقف السلطان عندما وصلته الأخبار بتجهيز سلطان دلهي "شيرشاه السوري" حملة ضد الكَجرات، فتشاور السلطان مع مستشاريه، وأجمعوا علي وجوب قبول الصلح مع البرتغاليين للتفرغ لخطر "شيرشاه"، وبذلك تم الصلح بين السلطان الكَجراتي "محمود شاه الثالث" والبرتغاليين[1].

أما عن بنود معاهدة الصلح فهي أن يكون الميناء للسلطان، ولا يتعرض البرتغاليون إلي مراكب السلطنة، وذلك في مقابل ألا تتعرض سلطنة الكَجرات للقلعة، ويأخذ البرتغاليون نصف العشور التي تجبي من المراكب الوافدة إلي الميناء، ويمدون يد المساعدة لحاكم ميناء "ديو" عند الحاجة، وقام السلطان "محمود شاه الثالث" بعد ذلك بتعيين الأمير "ناصر حبش خان" حاكماً علي "ديو" لما اشتهر عنه من حسن السياسة والحزم، فقام بضبط ميناء "ديو"، وسار علي سياسة حازمة خضع لها البرتغاليون، وكان تحت إمرته ستة آلاف من الجنود الأشداء، وعمل علي تعمير "ديو" بعد خرابها، وانتعشت التجارة بها بعد كسادها[2].

علاقة السلطان "أحمد شاه" بالدولة العثمانية:

لقد انحصرت علاقة سلطنة الكَجرات بالدولة العثمانية في عهد السلطان "أحمد شاه" (961هـ / 1553م : 968هـ / 1560م) في لجوء قائد الأسطول العثماني "سيدي علي الريس بن حسين جلبي" إلي الكَجرات ، وكان "علي الريس" قد أرسله السلطان العثماني "سليمان باشا الثاني" لقيادة الأسطول العثماني من "البصرة" إلي "السويس" ،ولكن الأسطول العثماني عاني من خسائر فادحة علي أثر معركة خاسرة خاضها مع البرتغاليين عند "هرمز"، وكان من

(1) الآصفي: ظفر الواله، ج1، ص286، 287.

Dobwell: OP.Cit,p19.

(2) الآصفي: ظفر الواله، ج1، ص287.

نتيجة هذه الهزيمة إغلاق الخليج العربي في وجه العثمانيين، هذا بالإضافة إلي تدمير خمس عشرة سفينة، ولم يبق معه إلا تسع سفن هرب بهم إلي الكَجرات حيث وجد مأوي آمناً لسفنه ورجاله[1].

وكان دخوله الكَجرات في شهر أغسطس سنة 962هـ / 1554م، ولكنه عند اقترابه من "ديو" لاحظت الحامية البرتغالية بالقلعة اقترابه فقامت سفنهم بملاحقته واستطاعت أسر سفينتين من سفنه وتحطيمهما[2]،وقد فرت السفن الباقية إلي ميناء "الدمن" الذي كان "ملك عزت" والياً عليه من قبل السلطان "أحمد شاه"، وقد استولي علي حطام سفنهم الغارقة وعلي المدافع التي كانت عليها، ولم يبد ترحيباً بقائد الأسطول العثماني ومن معه، ونتيجة لهذا الاستقبال غير المشجع حاول "علي الريس" الاتصال ببعض قباطنة سفن قادمة من "كاليكوت" حيث سمع أن ملكهم "السامري" في حرب دائمة مع البرتغاليين ، فأمل أن يجد مأوى آمناً لديه لبقية سفنه ولرجاله، ولكن ما لبث "ملك عزت" أن أخبر "علي الريس"

(1) أحمد عبد الرحيم: أصول التاريخ العثماني، ص99.

Diez: Miroir des pays ou relation des Voyages de Sidi Aly Fils d Housain, nomme ordinairement Katibi Roumi, amiral de Soliman II,traduite sur la version allemande,Journal Asiatique,Aout 1826, Edited by Fuat Sezgin,Islamic Geography, vol.16, Reprinting of Studies on The Works of The Ottoman Admiral Sidi Ali, Frankfurt,1992,p319,330.

Hammer: Notice and Extacts of The Miritolmemalik (Mirror of Countries) of Sidi Ali Capoodawn,1815,Transactions of The Literary Society of Bombay,Edited by Fuat Sezgin,Islamic Geography, vol.16, Reprinting of Studies on The Works of The Ottoman Admiral Sidi Ali, Frankfurt,1992,p1,2.

Longworth Dames: The Portuguese and Turkes in The Indian Ocean,P21,22.

Oldham,W: Sidi Ali Shelebi in India,p450:452.

Sayyd Maqbul Ahmad: A History of Arab – Islamic Geography (9 th -16 th Century A.D.),Amman, 1416 A.H/ 1995 A.D,P248.

(2) Diez: OP.Cit,p332 ,333.

Hammer: OP.Cit,p4.

Longworth Dames: OP.Cit,P23.

بوصول أخبار بقدوم أسطول برتغالي لملاحقتهم في ميناء "الدمن"، ونصحهم بالتوجه إلي "سورت" لأن ميناء "الدمن" في منطقة مفتوحة مما يجعل من اليسير علي السفن البرتغالية ملاحقتهم وتدميرهم، وقد فضل بعض رجاله البقاء في "الدمن" والالتحاق بخدمة "ملك عزت".

ويمكننا أن نرجع سبب الاستقبال الفاتر من حاكم "الدمن" للأسطول العثماني إلي كراهية شعب الكَجرات للأتراك بعد ما لاقوه من "سليمان باشا"، وقد اتضح هذا الأمر عند وصول الأسطول العثماني إلي "سورت" حيث أصيب سكانها بالفزع خوفاً من أن يكون هذا الأسطول مقدمة لاستيلاء السلطان العثماني علي الكَجرات[1]، وعلي العكس من ذلك استقُبل استقبالاً حسناً من حاكم "سورت" "رجب بن صفر خان" الملقب "خداوند خان" التركي الأصل، وكان والده "خواجه صفر" من رجال الدولة العثمانية السابقين[2].

وقد سمح "خداوند خان رجب" لسفن "علي الريس" بالرسو في الميناء، ولكن ما لبثت السفن البرتغالية أن تتبعتها وحاصرتها وطالبت من عليها بالاستسلام، فرفض الكَجراتيون هذا الأمر، وحاولوا استرضاء البرتغاليين حتي لا يدمروا السفن، ولكن محاولاتهم ذهبت هباء ودمر البرتغاليون السفن التركية، وبذلك لم يعد لدي "علي الريس" ورجاله وسيلة للعودة إلي بلدهم، وقد فضل كثير من رجاله البقاء في الكَجرات والتحقوا بخدمه سلطانها[3].

وأثناء إقامة "علي الريس" في الكَجرات شارك في الحرب التي كانت ناشبة بين سلطنة الكَجرات وأمرائها من ناحية، وبينها وبين البرتغاليين من ناحية أخري، فقد وصل "علي

(1) Diez : Miroir des pays ou relation des Voyages de Sidi Aly Fils d Housain ,p334:338

Hammer: Notice and Extacts of The Miritolmemalik,p4,5.

Oldham,W: Sidi Ali Shelebi in India,p452.

(2) Longworth Dames: The Portuguese and Turkes,P23.

(3) Longworth Dames: OP.Cit,P23.

Oldham,W: OP.Cit,p45

Sayyd Maqbul Ahmad: A History of Arab – Islamic Geography,p248: 250.

الريس" إلي ميناء "سورت" أثناء إدعاء حاكم "بهروج "نصير الملك" أحقيته بتولي السلطنة، وبعث رسولاً إلي نائب ملك البرتغال في "جوا" يطلب مساعدتهم للوصول إلي عرش السلطنة علي أن يتنازل لهم عن موانئ الكَجرات الهامة كلها وهي "الدمن" و"سورت" و"بهروج" و"كمباي" و"سومنات" و"منجالور".

وبوصول أخبار هذه المؤامرة إلي السلطان "أحمد شاه" تحرك علي رأس جيشه إلي "بهروج"، وعندما علم بوصول قائد الأسطول العثماني "علي الريس" ومن معه أرسل إليهم رسولا يدعوهم للانضمام إليه في حربه عليها، وعند وصول "علي الريس" إليه أرسله علي رأس مائتين من رجاله ليدعم حملته علي "بهروج"، وفي اليوم الثالث من وصولهم إليها قام الأسطول البرتغالي بمهاجمة الميناء واشتبك في قتال مع الجيش الكَجراتي المدعم بالعثمانيين، وقد أخبرهم الثائر "نصير الملك" بوجود "علي الريس" ورجاله ضمن المدافعين عن الميناء فسعوا إلي قتله، ولكن محاولتهم باءت بالفشل بعد أن تلقي "علي الريس" تحذيراً من "حسين أغا"، وقام السلطان "أحمد شاه" بعد ذلك بالهجوم علي قلعة "بهروج" ، كما أرسل "خداوند خان" و"جهانجير خان" علي رأس قوة لحماية "سورت" خوفاً من هجوم البرتغاليين عليها، ولكنه اضطر للانسحاب إلي "أحمد آباد" بعد أن ظهر فيها منافس آخر علي العرش.

وفي هذه الأثناء وقعت معركة بين الجيش الكَجراتي والعثمانيين من جهة وبين المتمردين في "بهروج" والبرتغاليين من جهة أخري، واستطاع الجيش الكَجراتي إحراز النصر في النهاية واستعادة "بهروج"، وقتل "نصير الملك" أثناء المعركة، ولكن مشكلة قائد الأسطول العثماني مع البرتغاليين لم تنته، فقد أرسلوا رسالة إلي "خداوند خان" لعقد معاهدة سلام بين الطرفين علي أن يتوقف البرتغاليون عن التعرض لموانئ الكَجرات في مقابل تسليم قائد الأسطول العثماني، ولكن "خداوند خان" رفض عرضهم، وقد ثار أتباع "علي الريس" ورغبوا في قتل الرسول ولكنه منعهم من ذلك ، وقام بمعالجة الموقف فأرسل أحد بحارته اليوناني الأصل إلي البرتغاليين أخبرهم بعزم "علي الريس" ومن معه علي الذهاب بعيداً عن هذا الساحل، وبذلك توقف البرتغاليون عن ملاحقته[1].

(1)Diez: Miroir des pays ou relation des Voyages de Sidi Aly Fils d Housain, p339:341

Hammer: Notice and Extacts of The Miritolmemalik,p6,7.

ولكن مشكلة عودة "علي الريس" إلي بلاده ظلت قائمة مع سيطرة البرتغاليين علي المحيط الهندي وترصدهم لإبحار أي سفينة تركية به، في الوقت الذي عاني فيه رجاله من نفاذ أموالهم فلم تصلهم رواتبهم منذ سنتين نتيجة لهذه الأحداث الصعبة التي تعاقبت عليهم، فاضطروا للتخلف بالكَجرات والالتحاق بخدمة سلطانها، وقد عرض "علي الريس" علي "خداوند خان" حاكم "سورت" أن يأخذ ما تبقي من سفنه ، فوافق "خداوند خان" ودفع ثمنها[1].

وفي المحرم من سنة 962هـ / 1554م اصطحب "علي الريس" نحو خمسين من أتباعه وبدأ رحلة العودة إلي بلاده براً، وعند وصوله إلي "أحمد آباد" استقبله السلطان "أحمد شاه" استقبالاً حافلاً وأنعم عليه بالهدايا والأموال التي تعينه في رحلته، وقد عرض عليه البقاء في خدمته علي أن يقطعه ميناء "بهروج" الغني، ولكنه شكر السلطان وعبر له عن رغبته في العودة إلي بلاده فودعه، وأبلغه تحياته واحترامه للسلطان العثماني[2]، وقد بلغت المدة التي مكثها "علي الريس" بالكَجرات ثمانية أشهر، رحل بعدها إلي "لاهور" ومنها إلي "دلهي" ، ومنها سافر إلي إيران ، ومن هناك واصل رحلته حتي عاد إلي بلاده في سنة 964هـ / 1557م[3].

---

(1) Diez: Miroir des pays ou relation des Voyages de Sidi Aly Fils d Housain, p346:348

Hammer: Notice and Extacts of The Miritolmemalik,p7:9.

Longworth Dames: The Portuguese and Turkes in The Indian Ocean,P23.

(2)Diez: OP.Cit,p346:348

Hammer: OP.Cit,p7:9.

Longworth Dames: OP.Cit,P23.

Oldham,W: Sidi Ali Shelebi in India,p453,454.

Sayyd Maqbul Ahmad: A History of Arab – Islamic Geography,p249, 250.

(3) Longworth Dames: OP.Cit,P23.

Sayyd Maqbul Ahmad: OP.Cit,p249, 250.

ويتضح من واقعة لجوء قائد الأسطول العثماني "علي الريس" إلي موانئ الكَجرات سيطرة البرتغاليين التامة علي المحيط الهندي، حتي أن حكام الموانئ الكَجراتية كانوا خائفين من إيواء سفن الأسطول التركي خوفاً من بطشهم، ولإظهار قوتهم للجميع أصروا علي تحطيم سفن الأسطول التركي رغم وساطة حاكم "سورت"، كما يتضح من هذه الواقعة موقف أمراء الكَجرات المحليين المعادي للعثمانيين بعد ما لاقوه من معاملة "سليمان باشا"، وعلي النقيض نجد ترحيب الأمراء من أصل تركي . الذين أحرزوا مكانة عالية في بلاط سلاطين الكَجرات. بالعثمانيين.

كما تظهر هذه الواقعة فشل الدولة العثمانية في القضاء علي الخطر البرتغالي في المحيط الهندي فعلي الرغم من استمرارية الصراع العثماني البرتغالي في البحر الأحمر والمحيط الهندي إلا إنه لم يكن حاسماً في المحيط الهندي، وإن نجحت في إبعادهم عن البحر الأحمر والحجاز، وتعتبر جهودهم في هذا الشأن تتمة لجهود المماليك الذين سبقوهم في محاولة التصدي لهذا الخطر، وربما يرجع سبب عدم نجاح العثمانيين في التصدي للبرتغاليين في المحيط الهندي إلي انشغالهم بالصراع في عدة جبهات أخري فلم يمكنهم تركيز قوتهم للقضاء علي خطر البرتغاليين في المحيط الهندي.[1]

سياسة السلطان "أحمد شاه" تجاه البرتغاليين:

لقد دب الضعف في أوصال سلطنة الكَجرات في عهد السلطان "أحمد شاه" (961هـ / 1553م : 968هـ / 1560م)، فقد أصبح الصراع بين الأمراء هو السمة السائدة لذلك العصر وذلك لصغر سن السلطان وسيطرة الأمراء علي الحكم، ومما زاد الطين بلة استعانة الأمراء في صراعاتهم بالبرتغاليين ليقدموا لهم يد المساعدة مقابل وضع يدهم علي بعض موانئ الكَجرات، وقد حدث ذلك أثناء صراع "عماد الملك" مع "اعتماد خان" حول الوصاية علي السلطان "أحمد شاه" ، مما دفع "عماد الملك" إلي طلب مساعدة قائد البرتغاليين في "ديو" ، فقبل أن يمده بخمسمائة جندي برتغالي علي أن يسلمهم ميناء "الدمن"، فكتب لهم بذلك،

(1) يسري أحمد عبد الله زيدان: التاريخ السياسي والمظاهر الحضارة في الشرق الإسلامي زمن المماليك والعثمانيين، ص202.

وقد عمل البرتغاليون في الحال علي الاستيلاء علي ميناء "الدمن" الذي كان عليه "مفتاح سيف الملوك[1]" عبد "ألغ خان" أحد أتباع "عماد الملك"، وقد رفض "مفتاح" تسليم "الدمن" للبرتغاليين واستعد لقتالهم، فأرسلوا إليه مرسوم السلطنة وفيه تسليمهم "الدمن" فأرسل إلي سيده "ألغ خان" بالأمر.

وعندما علم "ألغ خان" بالخيانة التي ارتكبها "عماد الملك" أجتمع بأصحابه من أتباع "عماد الملك" من أمثال "جهوجهار خان" و"أتلخان" وذهبوا إلي "عماد الملك" وعرضوا عليه خطاب "مفتاح" واستنكروا فعلته، وذكروه بما كان من خيانة البرتغاليين للسلطان "بهادر شاه"، ولكن "عماد الملك" أصر علي موقفه، وبالفعل سلم "الدمن" للبرتغاليين الذين شرعوا علي الفور في تحصينها، وفي المقابل لم يوفوا بوعدهم "لعماد الملك" الذي ندم علي ما فعله[2].

وكان يشغل منصب نائب ملك البرتغال علي الهند في ذلك الوقت "فرانسيسكو باريتو"، وقد نجح البرتغاليون سابقاً في الحصول علي قلعة "باسين" بالكَجرات، وقد تركزت طموحات نائب ملك البرتغال في الحصول علي ميناء "الدمن" المجاور "لباسين"، وقد انتهز فرصة عرض "عماد الملك" ووضع يده علي "الدمن"، ولم تستطع سلطنة الكَجرات استردادها بعد ذلك[3].

وقد عقد "عماد الملك" العزم علي استرجاع الدمن من البرتغاليين، فصالح "اعتماد خان"، وخرج بجيشه ومدافعه وأسلحته إلي "بهروج"، وهناك تأكد من عدم وفاء البرتغاليين بوعدهم فاستعد لقتالهم، ولكنه خرج أولاً إلي "سورت" ليطلب من صاحبها تسليمه المدافع السليمانية ومائة ألف دينار يستعين بهم في الحرب، وكان يلي علي "سورت" في ذلك الوقت أخو زوجة "عماد الملك" "خداوند خان رجب بن خواجه صفر[4]"، وقد ازدهرت "سورت" في عهده، وعمل علي تحصينها وتسليحها بالمدافع التركية التي حملها من "جونكَره" إلي

(1) يطلق عليه المؤرخون البرتغاليون اسم "سيد بافاتا".

Dobwell: The Cambridge History of India,p19.

(2) الآصفي: ظفر الواله، ج2، 438: 440.

Dobwell: OP.Cit,p19,20.

(3) Dobwell: The Cambridge History of India ,p19.

(4) الآصفي: ظفر الواله، ج1، ص440.

"سورت"، وخاصة المدافع المسماة "السليماني[1]"، وكان بينه وبين "عماد الملك" عداوة قديمة، فكتب إلي "اعتماد خان" يستأذنه في قتله، في الوقت الذي استقبل فيه رسول "عماد الملك" وهو "عادل خان قرماني" الذي كان من أصحاب "خواجه صفر" فوثق به "خداوند خان رجب"، واجتمع "بعماد الملك" فور قدومه وأحسن استقباله، وأظهر له تلبية كل طلباته[2].

وقد شرع "خداوند خان رجب" في تنفيذ مخططه للتخلص من "عماد الملك" بمجرد أن وصلته رسالة نائب السلطنة "اعتماد خان" بموافقته علي قتله، فطلب من "عادل خان قرماني" أن يتوسط لدي "عماد الملك" ليقبل دعوة ضيافته في قلعة "سورت" ليقدم له هدايا قيمة من الخيول العربية وغيرها علي ألا يصطحب معه إلا عددا محدودا من رجاله مجردين من السلاح، وقد قبل "عماد الملك" دعوته رغم تحذير أصحابه له، وبعد أن استقر بهم المجلس ووضع الطعام انسحب "خداوند خان رجب" من المجلس ودخل عليهم جماعة من فرسان الراجبوت قتلوا "عماد الملك" وأصحابه، وكان ذلك في ليلة الجمعة السابعة والعشرين من رمضان سنة 966هـ / 1558م[3].

ويمدنا المؤرخون البرتغاليون برواية تختلف قليلاً عن رواية "ظفر الواله" السابقة حول محاولة "عماد الملك"، الذي يطلقون عليه لقب "ملك كمباي" . استرجاع "الدمن" من البرتغاليين، فقد ذكروا إعداده لحملة عسكرية ضخمة لاسترجاع "الدمن"، في الوقت الذي لم يكن البرتغاليون قد أحكموا تحصينهم لها، وقد علم الحاكم البرتغالي علي "الدمن" أنه لن يستطع الصمود أمام حملة "عماد الملك"، ولذلك لجأ إلي الحيلة، وكان علي علاقة حسنة مع "خداوند خان رجب" حاكم "سورت" فانتهز فرصة العداء الذي بينه وبين "عماد الملك" وأقنعه أن "عماد الملك" لا ينوي مهاجمة "الدمن" ولكنه ينوي أن يطرده من "سورت"

(1) Longworth Dames: The Portuguese and Turkes in The Indian Ocean,P23.

(2) الآصفي: ظفر الواله ، ج1، ص 441.

Denison Ross: The Portuguese in India and Arabia,p17.

(3) الآصفي: ظفر الواله، ج2، ص443، 444. سكندر منجهو: مرآت سكندري، ص481، 482، مخطوط بدار الكتب المصرية، تاريخ فارسي 52.

ليضمها لإقطاعه، وقد صدق "خداوند خان" هذا الادعاء ودبر مقتل "عماد الملك" في الواقعة التي سبق الإشارة إليها[1].

وفي هذه الرواية إيضاح كافٍ لتحفز "خداوند خان" ضد "عماد الملك" وسعيه للتخلص منه، كما أنها توضح الدور الذي لعبه البرتغاليون في زيادة الشقاق بين أمراء الكَجرات، واستغلالهم الفرقة السائدة بينهم لصالحهم في الاستيلاء علي موانئ الكَجرات المهمة، كما يتضح من واقعة استيلاء البرتغاليين علي "الدمن" ما وصلت إليه سلطنة الكَجرات من الضعف حتي أن موانئ الكَجرات بيعت لهم في خضم الصراعات المشتعلة بين الأمراء ضد بعضهم البعض، وبذلك نجح البرتغاليون في إقامة مركزين رئيسيين في الكَجرات وهما "الدمن" و"ديو"، اللذان ظلا في أيدي البرتغاليين حتي بعد ضياع كل أملاكهم في الهند[2].

وبمقتل "عماد الملك" ضاع الأمل في استرجاع "الدمن" من البرتغاليين، هذا بالإضافة إلا إن أمراء الكَجرات لم يستفيدوا من هذا الدرس وإنما درجوا علي الاستعانة بالبرتغاليين في صراعاتهم الداخلية، من ذلك ما ذكره المؤرخون البرتغاليون عن محاولة "جنكيز خان بن عماد الملك" الأخذ بثأر أبيه من "خداوند خان رجب"، فقام بمحاصرة "سورت"، ولكن بعد فترة تبين عجزه عن الاستيلاء عليها فطلب مساعدة البرتغاليين لإمداده بعشرة سفن لتساعده في الهجوم علي ميناء "سورت" من جهة البحر علي أن يتنازل لهم عن "بهروج"، وذلك في الوقت الذي طلب فيه "خداوند خان رجب" مساعدة البرتغاليين للتخلص من "جنكيز خان" علي أن يعطيهم "سورت[3]".

وقد أرسل البرتغاليون عشرة سفن إلي ميناء "سورت" استطاعت دخول الميناء، وافترض كلا الجانبين أن هذه السفن قد جاءت لمساعدته، ولكن اتضح الموقف بانحياز

---

(1) Dobwell: The Cambridge History of India,p20.

(2) محي الدين الألوائي: مابلا، ص58.

(3) سكندر منجهو: مرآت سكندري، ص482.

Denison Ross: The Portuguese in India and Arabia,p17.

Dobwell: OP.Cit,p20.

Longworth Dames: The Portuguese and Turkes in The Indian Ocean,P24.

Gazetteer of The Bombay Presidency :History of Gujrat,p261.

البرتغاليين إلي "خداوند خان" الذي كانت تربطهم به علاقات صداقة قديمة، هذا بالإضافة إلي عرضه السخي لهم ممثلاً في تسليمهم ميناء "سورت" الغني، وفي ذلك الوقت انسحب "جنكيز خان" مؤقتاً من حصار "سورت"، وعند عودته لاستكمال الحصار كان البرتغاليون قد دخلوا المدينة بمساعدة "خداوند خان" وتصدوا لقتال "جنكيز خان" واستطاعوا هزيمته، وبعد أن أنهي البرتغاليون مهمتهم بنجاح طالبوا "خداوند خان" بتنفيذ وعده لهم، ولكنه اضطر للهرب بسبب ثورة أهالي "سورت" ضده، ورفضهم تسليم مدينتهم للبرتغاليين[1]، وفي أثناء هروب "خداوند خان رجب" وقع في يد "بجليخان" أحد نبلاء "جنكيز خان" الذي قطع رأسه وأرسلها إلي سيده، وكان مقتله سنة 968هـ / 1560م، وبموته لم يستطع البرتغاليون أن ينالوا ميناء "سورت[2]".

العلاقات بين سلطنة الكَجرات والبرتغاليين في عهد السلطان "مظفر شاه الثالث":

لقد قام "جنكيز خان" بمحاولة غير جدية سنة 971هـ / 1563م لإخراج البرتغاليين من "الدمن" في عهد السلطان "مظفر شاه" الثالث" (968هـ / 1560م : 980هـ / 1572م)، وكان غرضه من هذه المحاولة أن يتخلص من "عبد الله خان الأوزبك". من أتباع السلطان "أكبر شاه". الذي لجأ إليه وانضم لحزبه وحثه علي الاستقلال بالكَجرات، ولكن والدة "جنكيز خان" أقنعت ولدها بالعدول عن هذه الفكرة وعدم محاربة "اعتماد الملك" الوصي علي السلطان "مظفر شاه"، فكتب "جنكيز خان" إلي "عبد الله خان" يشير إليه بالتوجه لفتح "الدمن" حتي يصرفه عنه.

---

(1) Denison Ross: The Portuguese in India and Arabia,p17.
Dobwell: The Cambridge History of India,p20.
Longworth Dames: The Portuguese and Turkes in The Indian Ocean,P24.
Gazetteer of The Bombay Presidency : History of Gujrat,p261.

(2) الاصفي: ظفر الواله، ج2، ص481، 482. العيدروسي: النور السافر في أخبار القرن العاشر، ص362، حققه وضبط نصوصه أحمد حالو، محمود الأرناؤوط، أكرم البوشي، ط1،دار صادر، بيروت، 2001م.

ولم يكن "لعبد الله خان" خبرة بقتال البرتغاليين مما أدي إلي هلاك أكثر رجاله، لأن البرتغاليين انتظروا اقترابه من قلعة "الدمن" حتي وصل إلي الخندق فانطلقت مدافعهم وبنادقهم نحوه وحصدت غالبية رجاله، ووقع الباقي في أسرهم فقاموا بقطع أنوفهم وأرسلوهم إلي أميرهم الذي تكدر لهزيمته وما آل إليه أمر رجاله ، وكان ذلك سبباً لانصرافه عن "جنكيز خان" وهو ما كان يريده.

ويتضح من ذلك عدم جدية أمراء الكَجرات في استرداد "الدمن"، واستغلالهم البرتغاليين في صراعاتهم الداخلية، وعلي الرغم من ذلك لم تخل الكَجرات في ذلك الوقت من أمراء صدقوا نيتهم في جهاد البرتغاليين من هؤلاء الأمير "أيسن بختي خان" الذي ترك خدمة "عبد الله خان الأوزبك" والتحق بخدمة "جنكيز خان" وتصدي لحرب البرتغاليين سنة 971هـ / 1563م بثلاثمائة من رجاله، ولكن محاولته لم يكتب لها النجاح ، وقتل ما يقرب من مائة من رجاله.[1]

ومن المحاولات الفردية التي قام بها أمراء الكَجرات لإخراج البرتغاليين من "الدمن" جهاد "مرجان رومي خان" المعروف "بشامي" ضد البرتغاليين في "الدمن"، وكان "مرجان رومي خان" من أمراء "عماد الملك" ، وبعد وفاته التحق بخدمة "محمد ألغ خان" ثم بخدمة "جنكيز خان"، ثم تجرد من خدمة الملوك وخرج لجهاد البرتغاليين في "الدمن" ابتغاء ثواب الجهاد من الله تعالي، وقد نجح في شن عدة غارات ناجحة علي "الدمن"، ولكنه ما لبث أن بلغ الشهادة بطلقة بندقية، ودفن في "سورت".[2]

وبذلك يتضح لنا عدم محاولة أي من أمراء الكَجرات أو سلاطينها الضعاف في ذلك الوقت القيام بعمل جدي لطرد البرتغاليين من "الديو "و"الدمن"،اللّهم إلا بعض المحاولات الفردية التي لم يسفر عنها أي نتيجة، بل والأكثر من ذلك إدخال أمراء الكَجرات البرتغاليين طرفاً في صراعاتهم الداخلية وتمكينهم من موانئ كَجراتية هامة ، كما حدث في "الدمن"، وقد كان هذا الأمر بلا شك في مصلحة البرتغاليين، الذين استطاعوا أن يلعبوا برئيس ضد آخر كما رأينا في حالة "سورت"، وقد ظلت هذه الأوضاع حتي فتح الإمبراطور

(1) الآصفي: ظفر الواله، ج2، ص496، 497.
(2) الآصفي: المصدر نفسه، ج2، ص580.

"أكبر شاه" للكَجرات سنة 980هـ / 1572م ، وقد حاول أمراء سلطنة الكَجرات الاستعانة بالبرتغاليين لمساعدتهم في التصدي للإمبراطور "أكبر شاه" الذي استطاع ضم الكَجرات وتقدم إلي "كمبهايت" حيث رأي البحر لأول مرة، وهناك تعرف علي البرتغاليين الذين قدموا لتقديم تحيتهم واحترامهم للإمبراطور.

وفي الواقع كان هناك سبب آخر لقدوم البرتغاليين وهو طلب "إبراهيم حسين" قائد المرزائيين. أحفاد البيت التيموري القاطنين في الكَجرات. مساعدتهم ضد "أكبر شاه"، وكانوا قد تحصنوا في "بهروج" بعد أن قتلوا "رستم خان" حاكم "بهروج" لما أظهره من رغبته في التبعية للإمبراطور "أكبر شاه"، وعندما علم الأخير بذلك توجه للقضاء عليهم وهزمهم، وفي سنة 981هـ / يناير 1573م بدأ "أكبر شاه" حصاره ضد "سورت" للقضاء علي المتمردين المعتصمين بها الذين طلبوا مساعدة البرتغاليين لهم ضد "أكبر" علي أن يسلموهم "سورت"، ولكن تبين للبرتغاليين قوة المغول فغيروا دورهم من معادين "لأكبر شاه" إلي سفراء للترحيب به وتهنئته علي النصر، وقد أحسن الإمبراطور استقبالهم[1]، وبالتأكيد وضع البرتغاليون أيديهم علي موانئ كَجراتية هامة هي "ديو" و"دمن" و"باسين" التي كانت تدر جمارك عالية القيمة ،هذا بالإضافة إلي سيطرتهم التامة علي حركة الملاحة في المحيط الهندي، كل ذلك كان مصدر ضيق "لأكبر شاه[2]".

علي أي حال نستطيع أن نستخلص من صراع سلطنة الكَجرات ضد البرتغاليين أن استيلاء البرتغاليين علي موانئ الكَجرات لم يكن إلا باستخدامهم الحيلة واستغلالهم للضعف الذي أصاب الكَجرات عقب غزو "همايون شاه" لها ، وكذلك الشقاق الذي كان سائداً بين أمراء الكَجرات، وقد أدي هذا إلي دخول البرتغاليين طرفاً في هذه الصراعات وانتهازهم الفرصة للاستيلاء علي موانئ كَجراتية مهمة، فلولا الضعف الذي أصاب سلطنة الكَجرات

(1) Dobwell: The Cambridge History of India,p22.
Gazetteer of The Bombay Presidency :History of Gujrat,p265.

(2) أبي ظفر الندوي: الأسطول الكَجراتي (2): صلة الكَجراتيين بالملاحة، ص62.
Dobwell: OP.Cit,p23.

في أواخر أيامها لما استطاع البرتغاليون أن يضعوا أقدامهم علي أرضها، وكانت الحروب التي نشبت بين سلطنة الكَجرات والبرتغاليين بسبب محاولة إجلائهم عن الموانئ التي احتلوها، ويتضح لنا أيضاً من صراع سلطنة الكَجرات مع البرتغاليين عدم جدوي طرد البرتغاليين من موانئ الكَجرات بدون تدعيم من أسطول قوي، وهذا لم يكن في مقدرة سلاطين الكَجرات في ذلك الوقت، ولذلك استعانوا بسلاطين المماليك ومن بعدهم بسلاطين العثمانيين، ولكن بسبب عدم نجاح التعاون بين أمراء الكَجرات وقادة الأسطول التركي لم يستطيعوا طرد البرتغاليين من موانئها.

ثانياً : سياسة سلطنة الكَجرات تجاه مكة المكرمة:

ارتبطت سلطنة الكَجرات بصلات وثيقة بالحرمين الشريفين لما يتمتعان به من قداسة دينية لدي المسلمين، وقد وصلت هذه العلاقات إلي قمة ازدهارها في عهد السلطان "مظفر شاه حليم" وابنه السلطان "بهادر شاه"، أي في الفترة من سنة 917هـ / 1511م إلي سنة 943هـ / 1537م، فقد زاد في هذه الفترة اهتمام سلطنة الكَجرات "بمكة"، كما توافد إليها علماء "مكة" وتجارها لتشجيع سلاطينها وإجزالهم العطاء لهم[1].

وكان الحرمان الشريفان في ذلك الوقت تابعين للدولة المملوكية في مصر ومن بعدها للدولة العثمانية، وكان السلطان المملوكي ثم العثماني يشرف علي اختيار شريف "مكة"، ويعين له راتباً، كما تولي سلاطين المماليك والعثمانيين إرسال الأموال والأقوات إلي أهالي الحرمين كل عام لما هو معروف من جدب هذه المنطقة من الزراعة والصناعة، كما عملوا علي تأمين طرق الحجيج والاهتمام بالنواحي العمرانية بها[2].

وقد وجه سلاطين الكَجرات اهتمامهم إلي الحرمين الشريفين، ولم يتوانوا عن إرسال المساعدات والصدقات لأهالي الحرمين الشريفين، ومن مظاهر اهتمام سلاطين الكَجرات

(1) لمياء أحمد عبد الله شافعي: علاقة مكة المكرمة بالدولة الكَجراتية فيما بين سنتي 923هـ: 946هـ / 1517م: 1529م من خلال كتاب نيل المني لجار الله بن فهد، مجلة كلية الدراسات الإنسانية، ع19، 2001م، ص157، 158.

(2) علي حسين السليمان الناصر: النشاط التجاري في شبه الجزيرة العربية أواخر العصور الوسطي، ص61.

بالحرمين الشريفين ما قام بها السلطان "مظفر شاه الأول" (810هـ / 1407م : 813هـ / 1410م) من إرساله خيام يستظل بها المصلون في المسجد الحرام عندما بلغه أن المصلين به في يوم الجمعة لا يجدون ما يستظلون به عند سماعهم للخطبة، فأرسل هذه الخيام إلي مكة سنة 809هـ / 1406م، ولكنها نصبت حول الكعبة فترة قصيرة لما كانت تحدثه من ضرر لتعثر الناس بحبالها أثناء الطواف[1]، ويدل هذا الأمر علي اهتمام سلاطين الكَجرات بالحرمين الشريفين ولا سيما "مكة" المكرمة.

ومن مظاهر اهتمام سلاطين الكَجرات بالحرمين الشريفين مساهمتهم في المبرة الهندية المرسلة إلي أهالي الحرمين الشريفين، والمبرة الهندية هي عطايا سنوية تأتي إلي "مكة" و"المدينة" علي غير موعد معين لتعلق أمرها بعطاء سلاطين الهند وأوضاع بلدانهم الاقتصادية، وكذلك تبعاً لأمان الطريق وخاصة من تحرشات البرتغاليين في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، وتقسم المبرة الهندية بين أهالي "مكة" و"المدينة"، فيعين لشريف "مكة" الثلث ويصرف الباقي علي الفقهاء والقضاة وأئمة الحرم المكي ومشايخه والأرامل وملازمي الأربطة وعامة أهل "مكة[2]"، ومن الملاحظ أن المبرة الهندية كانت غالباً تنفق علي شريف "مكة" والعلماء والمشايخ، ولم يخصص منها شيء للمسجد الحرام أو المسجد النبوي.

ومن الأمثلة علي ذلك وصول المبرة الكَجراتية في شهر رمضان سنة 894هـ / 1488م إلي "مكة"، وقد بلغت قيمتها ثلاثمائة دينار، ووزعت علي أهالي "مكة" فخص كل قاض منها عشر دنانير، وكل خطيب في المسجد الحرام ثمانية دنانير، ووزع علي العامة كل فرد ما بين ستة وخمسة وأربعة وثلاثة من الدنانير، وقد ذكر المؤرخ المكي "العز عبد العزيز بن النجم بن فهد" أنه أخذ من هذه الفئة ، كما وُزع ديناران ودينار ونصف ودينار، ونصف دينار علي أهل مكة كل حسب طبقته، وبعضهم لم يعط من هذه المبرة[3].

ولم تقتصر مبرة الكَجرات إلي الحرمين الشريفين علي سلاطين الكَجرات ، وإنما امتدت إلي أمرائهم ومماليكهم، فقد أرسل "ملك إياز". مملوك السلطان "محمود شاه بيكَره" (862هـ

(1) عبد العزيز بن فهد: غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام،ج2، ص278.
(2) لمياء أحمد عبد الله شافعي: علاقة مكة المكرمة بالدولة الكَجراتية، ص193.
(3) عبد العزيز بن فهد : بلوغ القري ، ج1، ص588.

/ 1457م : 917هـ / 1511م) ونائبه علي ميناء "ديو"، صدقة كبيرة إلي الحرمين وصلت في محرم سنة 912هـ / 1506م، وقد اشتملت هذه الصدقة علي أقمشة وملبوسات، وقد وزع ثلثها علي أهل المدينة، وأخذ ثلثها أمير مكة علي عادته في ذلك، ووزع الثلث المتبقي علي القضاة، وأعطي أهالي مكة بعد ذلك كل حسب طبقته، وقد ذكر المؤرخ "عز الدين عبد العزيز بن فهد" أنه ناله هو وابنه بعضاً منها، وعلي الرغم من ضخامة هذه المبرة إلا إن كثيراً من الناس المستحقين لها حرموا منها، وذلك بسبب استيلاء أمير مكة وقضاتها علي كثير منها، كما استولوا علي كمية كبيرة من الأرز كانت ضمن هذه الصدقة، وادعوا ضياعها[1] ، ويدل ذلك علي سوء استغلال أمير مكة وقضاتها لهذه المبرة.

وقد أرسلت مبرة أخري من الكَجرات في عهد السلطان "محمود شاه بيكَره" إلي أهالي الحرمين الشريفين وصلت إليهم في الحادي عشر من شوال سنة 915هـ / 1509م، وقد خصص معظمها لأهل "المدينة" والباقي أرسل لأهل "مكة"، وكانت من القماش، فكان نصيب أهل "مكة" مائة قطعة، ومثلها لأمير "مكة"، ومثلها لنائب "جدة"، وللقاضي الشافعي "بمكة" ست وسبعون قطعة، وللقاضيين الحنفي والمالكي بها كل واحد خمس وستون قطعة، وللقاضي الحنبلي بها ست وثلاثون قطعة[2].

ومن الأعمال الخيرية التي قام بها السلطان "محمود شاه" للحرمين الشريفين أن جعل لهما وقف يتكون من عدة قري كَجراتية، يرسل ريعها للإنفاق علي الحرمين الشريفين وأهلهما، وقد استمر هذا الوقف حتي بعد نهاية سلطنة الكَجرات، فبعد فتح السلطان "أكبر شاه" لها أمر باستمرار الوقف علي ما هو عليه[3].

كما قام السلطان "مظفر شاه الثاني" بتعيين مبرة سنوية ترسل إلي فقراء الحرمين الشريفين[4]، ومن الأمثلة علي ذلك إرساله سفينة ممتلئة بالقماش الثمين كصدقة لتوزع علي أهل الحرمين الشريفين، كما كان للسلطان "مظفر شاه" إسهام كبير في بناء كثير من المنشآت

(1) عبد العزيز بن فهد : المصدر نفسه، ج3، ص 1513، 1514.
(2) عبد العزيز بن فهد : المصدر نفسه، ج3، ص 1703.
(3) الآصفي: ظفر الواله، ج2، ص618.
(4) Bayley: The Local Muhammadan Dynasties, Gujarat, p292.

التعليمية والاجتماعية "بمكة"، من ذلك بناؤه مدرسة وسبيل بها، وعين لهما وقفاً للإنفاق علي الطلبة والعلماء[1]، وكذلك إرساله لكل من الحرم المكي والحرم النبوي مصحفين وربعتين بخطه، وقد عين وقفاً لقرائهم والقائمين عليهم، وقد استمر هذا الأمر معمولاً به حتي وفاة السلطان "محمود شاه الثالث" سنة 961هـ / 1553م[2].

وكان يقوم بالإشراف علي المبرة الكَجراتية عدد من كبار المسئولين يقوم بتعينهم السلطان الكَجراتي، ويأتي علي رأسهم "وكيل المبرة" أو "أمين المبرة" وهو المتصرف الأول في شئونها ، ويختار أعوانه من أهل مكة الذين من أهمهم الصيرفي الذي يتولي صرف المبرة لمستحقيها، كما كان يعاون "وكيل المبرة" كاتب ليوثق كل ما يصرف، أما عن الأعمال التي يناط بها "وكيل المبرة" فأهمها جلبه المبرة من الكَجرات إلي الحرمين وإشرافه علي توزيعها، ويقوم أيضاً بالإشراف علي شؤون المدارس والأربطة التي أنشأها سلاطين الكَجرات في مكة . مما سيأتي ذكره في الفصل الأول من الباب الثاني إن شاء الله. ويعاونه ناظر هذه المنشآت في أخذ توقيعات القضاة والعلماء علي توزيع المبرة علي مستحقيها ويقدم هذه التوقيعات إلي السلطان، كما ينوب الناظر عن الوكيل في بعض الأعمال الإدارية، ويقوم علي توزيع المبرة "المباشر" الذي يكون عادة موظف هندي، ويشرف عليهم جميعاً مجلس الأمناء الذي يتكون من اثنين من أهل الكَجرات واثنين من أهل مكة يقوم السلطان الكَجراتي باختيارهم[3].

لجوء وزير وحريم السلطان "بهادر شاه" إلى "مكة":

ويتضح مما سبق مدي العلاقات الوثيقة التي ربطت سلطنة الكَجرات بالحرمين الشريفين، وما كان يكنه سلاطين الكَجرات من إجلال وتقدير لمكة والمدينة، وقد برز هذا الأمر في عهد السلطان "بهادر شاه" (932هـ / 1526م : 943هـ / 1536م) عندما اجتاح "همايون شاه" الكَجرات ولم يجد السلطان "بهادر شاه" مكاناً آمناً لحريمه وخزانته إلا الحرمين

(1) الاصفي: ظفر الواله، ج1، ص131.

(2) الاصفي: المصدر نفسه، ج1، ص 132. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج7، 183. محمد قاسم هندوشاه: فرشته، ص211.

(3) لمياء أحمد عبد الله شافعي: علاقة مكة المكرمة بالدولة الكَجراتية، ص197: 200.

الشريفين، فكلف وزيره "عبد العزيز آصف خان" بالاستعداد للسفر إلي الحجاز وجعله المتصرف في الخزانة والدفاع عن الحريم بما يراه، وأمره بالمكث في "مكة" حتي يأتيه استدعاؤه له بالرجوع، كما حمَّله هدية قيمة للسلطان العثماني. مما سبقت الإشارة إليه. وقد استعد "آصف خان" للسفر في أيام قليلة، فجهز عشرة سفن لحمل حريم السلطان وأتباعهم، وكان يقوم بخدمتهم ألفان من الحشم السلطانية أكثرهم من عرب اليمن والباقي أروام وأحباش، وصحبه من أمراء السلطان "شمس خان" و"قيصر خان"، وقد سافروا من ميناء "ديو" وطرحت السفن مرساها في ميناء "جدة" بعد شهرين من السفر علي الرغم من سفرهم في غير مواعيد السفر، فوصلوا إليها في سنة 942هـ / 1535م[1].

وهنا يجب أن نعرف بالوزير "المسند العالي آصف خان أبو القاسم عبد العزيز بن شمس الدين محمد بن ركن الدين محمد بن جلال الدين محمد بن تاج الدين محمد بن شاهو بن تكودر بن جام ننده السندي الكَجراتي الشهيد " الذي يعد من أعظم وزراء سلاطين الكَجرات، ولد في ثاني عشر ربيع الأول سنة 907هـ /1501م وقيل سنة 909هـ/ 1503م بمدينة "چانبانير"، واشتغل بتعلم اللغة العربية والعلوم الشرعية ، ثم اتجه لتعلم العلوم الفلسفية والطب علي يد العديد من العلماء الأجلاء في ذلك العصر، ولما أظهر تفوقه في هذه العلوم العديدة أسند إليه السلطان "بهادر شاه الكَجراتي" العديد من المسئوليات تمهيداً لشغل الوزارة وخاطبه أولاً "بنجيب الملك"، ولما ضعف الوزير "مجد الدين محمد بن محمد الإيجي" عن القيام بمهام الوزارة لكبر سنه تخير "آصف خان" للقيام بمهام الوزارة، لعلمه بميل السلطان الشديد إليه ، فقام بها علي الوجه الأكمل فازداد قربه للسلطان، فولاه منصب الوزير الأعظم بعد استعفاء الوزير "مجد الدين محمد الإيجي" ولقبه "بالمسند العالي[2]".

(1) الاصفي: ظفر الواله، ج1، ص257. العيدروسي: النور السافر في أخبار القرن العاشر، ص325. لمياء أحمد عبد الله شافعي: علاقة مكة المكرمة بالدولة الكَجراتية ، ص165.

(2) الآصفي: ظفر الواله، ج1، ص336:339. العيدروسي: النور السافر، ص325. عبد الحي بن فخر الدين الحسني: نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، ج4، ص185: 192، ط1، الهند ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن ، 1374هـ / 1954م.

وكان أمير "مكة" . عند وصول الوزير "آصف خان" إليها . هو "أبو نمي بن بركات الحسيني[1]"، وقد اجتمع به "آصف خان" ونشأت بينهما صداقة وطيدة[2] ، وقام بتوزيع العطايا علي أهل "مكة" لتأليف قلوبهم، ولكن كان الطمع في خزانة السلطان "بهادر شاه" من أمراء الدولة العثمانية وخاصة عندما بلغهم وفاة السلطان "بهادر شاه"، فأرسل الوالي العثماني علي مصر . الذي كانت الحجاز تابعة له . "خسرو باشا" أحد أمرائه وهو "قائم الحمزاوي" لأخذ الخزانة من الوزير "آصف خان"، ولكن الوزير الكَجراتي المحنك استطاع معالجة الموقف، فقد أصر علي أن يصحب الخزانة وتوسط أمير مكة في ذلك لدي "الحمزاوي" كما أن "آصف خان" دفع إليه مبلغاً كبيراً، فرضي "الحمزاوي" أن يصحبه معه، فترك "آصف خان" وكيله "سراج الدين عمر النهروالي" في "مكة" مستأمناً علي حريم السلطان "بهادر شاه" وحاشيتهم وتحرك صحبة "الحمزاوي"، وقد أرسل أمير مكة حاجبه معه.

ولكن "آصف خان" لم يدخل مصر وإنما أرسل إلي واليها "خسرو باشا" هدايا من قماش الهند الفاخر وأربعة صناديق من الذهب، واعتذر عن حضوره إليه ، واتجه لمقابلة السلطان العثماني "سليمان باشا" في "أدرنه"[3] ليقدم إليه هدايا السلطان "بهادر شاه" وليحصل علي الأمان له ولحاشية السلطان في الإقامة في الحجاز، وقد ظفر بمقابلة السلطان "سليمان القانوني" بلا وساطة ، وقد أعجب السلطان بحسن بيانه وأدبه وعلمه وسأله أن يتمني عليه أي شئ، فاستأذن منه "آصف خان" في رجوع حريم السلطان "بهادر شاه" إلي الكَجرات،

(1) أمير "مكة" السيد الشريف "أبي نمي بن بركات بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان الهاشمي"، أشركه والده في إمارة "مكة" قبل وفاته لكونه أكبر أبنائه هذا بالإضافة إلي صفاته الحميدة، وقد أنفرد بالإمارة بعد وفاة والده سنة 931هـ / 1507م، وقد عم الأمان والازدهار الحرمين في عهده. عبد القادر بن محمد بن عبد القادر بن محمد بن إبراهيم الأنصاري الجزيري: درر الفوائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، المطبعة السلفية، القاهرة ، 1384هـ ، ص695.

(2) الآصفي: ظفر الواله ، ج1، ص288.

(3) "أدرنة" إحدى مدن تركيا القريبة من حدودها مع اليونان، اسمها سابقاً "أدريا نوبل"، وهي عاصمة إقليم يحمل اسمها يقع في الجزء الأوربي من تركيا، وكانت مقر سلاطين العثمانيين. فاطمة محجوب: الموسوعة الذهبية، ج3، ص358.

وطلب منه أن يعفيه من أمانة بيت المال "بمكة" و"جدة" التي كانت مسندة إليه، فعرض عليه السلطان العثماني أن يوليه إمارة الشام وحلب، ولكنه اعتذر وسأل لنفسه معاشاً سنوياً من مائة ألف دينار فأجابه إلي ذلك، وبذلك رجع "آصف خان" إلي "مكة" ظافراً بعد أن أنجز سفارته بنجاح لدي السلطان العثماني، وأشرف علي سفر حريم السلطان "بهادر شاه" وخزانته إلي الكَجرات في صحبه وكيله، وعزم هو علي مجاورة المسجد الحرام[1].

وكان الوزير "آصف خان" أثناء فترة إقامته في "مكة" متفرغاً للعبادة والعلم، وكان يؤم مجلسه كبار العلماء للبحث في مختلف العلوم الشرعية وعلم الحديث بصفة خاصة، واشتهر "آصف خان" بكثرة إنفاقه علي أهل مكة وخاصة علي طلبة العلم حتى ازدهرت الحياة العلمية في "مكة" في عهده ازدهاراً كبيراً، وقد بلغ من كثرة إنفاقه علي أهل "مكة" أن عاشوا في رغد وتوسعوا في معاشهم بدرجة لم تعهد من قبل ، وذلك بشهادة المؤرخين المكيين المعاصرين له[2].

ومن أهم منشآت "آصف خان" التعليمية "بمكة" مدرسة بناها عند باب العمرة[3]، وقام بالتدريس فيها كبار علماء "مكة" في ذلك الوقت من أمثال الشيخ " عز الدين عبد العزيز الزمزمي" والشيخ "شهاب الدين أحمد بن حجر المكي"[4] ، وظل "آصف خان" مجاوراً "بمكة" إلي أن استدعاه السلطان "محمود شاه الثالث" (943هـ / 1536م : 961هـ / 1553م) سنة 955هـ / 1548م ليتولى وزارته، وعند عودته استقبله استقبالاً عظيماً وأسند إليه وزارته[5]، وظل بالوزارة مدة حتى قتله "برهان الدين الشرابي" مما سيأتي ذكره في الفصل

(1) الآصفي: ظفر الواله، ج2، ص626: 628.عبد الحي الحسني: نزهة الخواطر، ج4، ص186: 188.

(2) الآصفي: ظفر الواله، ج1، ص336:339. العيدروسي: النور السافر في أخبار القرن العاشر، ص325.عبد الحي الحسني: نزهة الخواطر، ج4، ص188: 190.

(3) "باب العمرة" من أبواب "مكة" ، يقع غرب المدينة جهة الطريق إلي "المدينة المنورة" ومصر والشام ، ومنه يتجه إلي التنعيم. ابن بطوطة: تحفة النظار، ص90.

(4) عبد الحي الحسني: نزهة الخواطر، ج4، ص193.

(5) الاصفي: ظفر الواله، ج1، ص287: 290.

Bayley: The Local Muhammadan Dynasties, Gujarat, p401,402.

Wolseley Haig: The Cambridge History of India, Vol. III,p341.

التالي إن شاء الله، وكان ذلك في أوائل ربيع الأول سنة 961هـ / 1553م، وقد حزن أهل "مكة" كثيراً لوفاته لما كان يعود عليهم من الخير بسببه، ورثاه الشيخ العلامة "عبد العزيز الزمزمي المكي" بقصيدة عظيمة[1]، وصلي عليه أهل "مكة" صلاة الغائب بطلب من زوجته وأخيه اللذين كانا في "مكة" في ذلك الوقت[2]، وبذلك يتبين لنا ازدهار العلاقات الخارجية بين سلطنة الكَجرات والحرمين الشريفين ولا سيما "مكة" المكرمة.

ثالثاً: سياسة سلطنة الكَجرات تجاه الدولة الصفوية:

ينسب الصفويون إلي الشيخ الصوفي "صفي الدين الأرديبلي" الذي عاش في الفترة (650هـ / 1252م: 735هـ / 1334م)، وقد تزوج من ابنة الشيخ "كمال الدين عربشاه الأردبيلي" أحد مشايخ العلويين ومن مشاهير الصوفية في ذلك الوقت، وكان رئيس فرقة صوفية كبيرة في "أردبيل[3]"، وقد خلفه الشيخ "صفي الدين" في رئاسة الطريقة، وكان الشيخ "صفي الدين الأردبيلي" سنياً، ولكن خلفاءه تحولوا إلي مذهب الشيعة الاثنا عشرية ،وادعوا نسبهم إلي الإمام السابع "موسي الكاظم"، وبدأوا في المطالبة بالحكم، مما أدي إلي دخولهم في صراعات من الدول المتبعة مذهب أهل السنة التي كانت قائمة في ذلك الوقت في إيران[4].

---

(1) الآصفي: ظفر الواله، ج1، ص301. العيدروسي: النور السافر، ص191: 193. عبد الحي الحسني: نزهة الخواطر، ج4، ص325، 326.

Bayley: OP.Cit, p447

(2) لمياء أحمد عبد الله شافعي: علاقة مكة المكرمة بالدولة الكَجراتية، ص166.

(3) " أرْدَبِيل" مدينة حصينة بأذربيجان ، وهي طيبة التربة كثيرة الأنهار، القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص291، دار صادر، بيروت.

(4) أحمد الخولي: الدولة الصفوية تاريخها السياسي والاجتماعي – علاقتها بالعثمانيين، ص28، 29، مكتبة الأنجلو المصرية، 1981م. أحمد الخولي ، بديع جمعة: تاريخ الصفويين وحضارتهم، ج1، ص30: 38، ط1، دار الرائد العربي، 1976م.أحمد عبد الرحيم: أصول التاريخ العثماني، ص77. براون، إدورد: تاريخ الأدب في إيران من بداية الحكم الصفوي حتي نهاية الحكم القاجاري (1500: 1924م) ، ص27، 28، ترجمه إلي الفارسية رشيد ياسمي، ترجمه إلي العربية محمد علاء الدين منصور، ج4، المجلس الأعلي للثقافة، 2002م. كامل مصطفي الشيبي: الصلة بين التصوف والتشيع (2) النزعات الصوفية في التشيع، ص351، 352، 355، ط3، دار الأندلس، بيروت، 1982م.

و"صفي الدين الأردبيلي" هو الجد الأكبر لشاه "إسماعيل الصفوي" مؤسس الدولة الصفوية، وقد ولد "شاه إسماعيل" في يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من رجب 892هـ / الثامن عشر من يونيه 1487م، وتربي تربية عسكرية وعلمية، وعندما شب عن الطوق تحمل أعباء زعامة البيت الصفوي ، وقد بدأ حركته سنة 905هـ / 1449م من أذربيجان[1]، وهناك لقب "بالشاه"، وبعد عدة معارك ظافرة تمكن من الوصول إلي عرش إيران سنة 907هـ / 1502م ، وقد عمل بعد ذلك علي فرض المذهب الاثني عشري بقوة السيف بعد أن أعلنه مذهباً رسمياً للدولة، واستطاع ضم العراق إلي حكمه سنة 914هـ / 1508- 1509م ، كما استطاع احتلال بلاد ما وراء النهر سنة 918هـ / 1512 – 1513م[2].

وبعد أن تمكن الشاه "إسماعيل الصفوي" من توطيد حكمه في إيران اتجه إلي التوسع في علاقاته الخارجية مع الهند، وقد قام بإرسال سفارات إلي الدول الهندية المعاصرة له لتوطيد العلاقات بين دولته الناشئة وبينهم[3]، وكان من هذه الدول سلطنة الكَجرات[4] التي وصلها في شهر شوال 917هـ / 1511م "ميرزا إبراهيم خان[5]" سفير شاه "إسماعيل الصفوي"

(1) تقع "أذربيجان" في الجنوب الشرقي من "قفقاسيا"، وهي تشرف علي جزء كبير من الساحل الغربي لبحر قزوين، وتمتد أراضيها داخله، أما بلاد أذربيجان فتقع إلي الشمال والغرب من عراق العجم، وإلي الشمال والشرق من عراق العرب، ومن أهم مدنها "تبريز" و"أردبيل". فاطمة محجبوب: الموسوعة الذهبية، ج3، ص486: 489.

(2) الشوكاني : البدر الطالع، ج1، بمحاسن من بعد القرن السابع، ص270، ط1، القاهرة، مطبعة السعادة، 1348هـ. أحمد الخولي: الدولة الصفوية، 46: 52.أحمد الخولي، بديع جمعة: تاريخ الصفويين وحضارتهم،ج1، ص49: 55. براون: تاريخ الأدب في إيران، ج4، ص29، 30. كامل مصطفي الشيبي: الصلة بين التصوف والتشيع (2) ، ص366. يد الله شكري: عالم آراي صفوي، ص35، انتشارات اطلاعات ، تبريز، 1363هـ.

(3) محمد السعيد عبد المؤمن: الأدب في العصر الصفوي، ص77، جامعة عين شمس، 1984م.

(4) محمد قاسم هندوشاه: تاريخ فرشته، ص211.

Bayley: The Local Muhammadan Dynasties, Gujarat, p246..

(5) لقد ذكر كلاً من "الهروي" و"ملا عبد القادر نهاوندي" اسماً مخالفاً لرئيس السفارة الصفوية وهو "يادكار بيك"، بينما ذكره "سكندر" باسم "ميرزا إبراهيم خان"، وقد رجحنا رأي "سكندر" لأنه الأكثر مصداقية ودقة بالنسبة لتاريخ سلاطين الكَجرات، وقد أطلق عليه أهالي الكَجرات "بسره كَلاه" بمعني "صاحب القلنسوة الحمراء. الهروي: طبقات أكبري، ج3، ص111. ملا عبد القادر نهاوندي: مآثر رحيمي، ص150.

وفي صحبته أربعون من جنود القزلباش[1]، وقد وصلت هذه السفارة إلي الكَجرات في أواخر عهد السلطان "محمود شاه" بيكَره" (862هـ / 1457م : 917هـ / 1511م)، الذي لم يرغب أن يقابلهم لأنهم من الشيعة، وكان السلطان "محمود بيكَره" من أهل السنة المتمسكين بعقيدتهم المدافعين عنها، وقد توفي السلطان "محمود شاه بيكَره" قبل وصول سفارة الصفويين إلي العاصمة "محمد آباد[2]".

وبعد تولي السلطان "مظفر شاه الثاني" (917هـ / 1511م : 932هـ / 1526م) العرش من بعده أرسل عدداً من كبار الأمراء وهم "ملك شرق" و"حميد الملك" و"قطب الملك" وأتباعهم لاستقبال السفارة الصفوية والترحيب بها، ورافقوهم لمقابلة السلطان في العاصمة، وعند مثولهم أمام السلطان قدم "ميرزا إبراهيم خان" هدايا الشاه "إسماعيل الصفوي" إلي السلطان "مظفر شاه"، وهي عبارة عن كأس عالي القيمة مرصع بأحجار الفيروز، وصندوق مملوء بالجواهر، مع كثير من الأقمشة القيمة، وثلاثين فرساً إيرانياً، وقد استقبل السلطان "مظفر شاه" السفير الصفوي بترحاب كبير وخلع عليه وعلي رفقائه ملابس تشريفية عظيمة، وعين مكاناً مناسباً لإقامتهم ، وأمر بوضع حراسة عليهم[3].

ولم يرد في المصادر الهندية أو الصفوية شئ عن الغرض من هذه السفارة، ولكن يمكننا أن نرجح أن سبب هذه السفارة يرجع إلي أن الدولة الصفوية في بداية عهدها عملت علي

---

(1) قبائل القزلباش من أكبر أنصار شاه "إسماعيل الصفوي"، انضم أجدادهم إلي الدعوة الصفوية في عهد "خواجه علي سباهبوش" حفيد "صفي الدين"، عندما طلب "خواجه علي" من "تيمور لنك" أن يطلق سراح الجنود الأتراك الذين أسرهم في معركته مع السلطان العثماني "بايزيد" عام 804هـ / 1042م، فوافق علي طلبه، وهؤلاء الأسري هم أجداد طائفة روملو القزلباشية التي كانت من أكبر أنصار شاه "إسماعيل الصفوي" ومن أكبر المدافعين عن مذهبه الشيعي، وقد عرفوا باسم القزلباش أي حمر الرؤوس لارتدائهم قلنسوة حمراء منذ عهد السلطان "حيدر" والد الشاه "إسماعيل الصفوي"، وقد أمرهم بذلك لتميزهم عن خصومهم. أحمد الخولي، بديع جمعة: تاريخ الصفويين وحضارتهم ، ص32، 33، 35.

(2) ملا عبد القادر نهاوندي: مآثر رحيمي ، ص150. الهروي: طبقات أكبري، ج3، ص110.

Wolseley Haig: The Cambridge History of India, Vol. III,p315.

(3) ملا عبد القادر نهاوندي: طبقات أكبري ، ص152.

Bayley: The Local Muhammadan Dynasties, Gujarat, p244.

توطيد مركزها الدولي بين جيرانها، وحاولت نشر مذهبها الشيعي بينهم، ولذلك عملت علي كسب صداقة سلطنة الكَجرات التي كانت قد بلغت في ذلك الوقت أوج قوتها وازدهارها، وأرجح أن أحد أسباب هذه السفارة هو محاولة الدولة الصفوية تدعيم الدعوة الشيعية في الكَجرات التي كانت تواجه اضطهاداً في ذلك الوقت من قبل سلطنة الكَجرات التي تمسك سلاطينها بمذهب أهل السنة وعملوا علي محاربة الدعوة الشيعية.

فقد ورد في المصادر الشيعية اتصال سفير إيران برئيس الدعوة الإسماعيلية في الكَجرات في ذلك الوقت وهو ملا "راجا صاحب جمال الدين بن ملا حسن بهائي" الذي كان له دور كبير في نشر الدعوة الإسماعيلية الطيبية في الكَجرات، وقد ذكرت لنا مصادر البهرة قصة هذا اللقاء فعندما وفد "ميرزا إبراهيم خان" سفير شاه "إسماعيل الصفوي" إلي الكَجرات، أراد الاجتماع بعلمائها لِما سمعه عن شهرتهم العلمية الواسعة، ولمّا اجتمع بهم عرض عليهم مسألة أشكل عليه حلها. لم تذكر المصادر شيئاً عن هذه المسألة. فلم يعلموا لها حلاً، فتوجه إلي ملا "راجا صاحب جمال الدين" الذي حلها له بسهولة مما أغضب عليه علماء الكَجرات، فشكوه إلي السلطان "مظفر شاه" الذي أمر بقتله[1].

وبغض النظر عن المبالغة في هذه الرواية فإنه يتضح منها رغبة السفير الصفوي في الاجتماع برئيس الدعوة الإسماعيلية في الكَجرات لمحاولة الدولة الصفوية تدعيم الدعوة الشيعية في الكَجرات، ولكن علي الرغم من الاستقبال الحسن الذي حظي به السفير الصفوي في بلاط السلطان "مظفر شاه" إلا إن هذه السفارة لم تجد لها صدي في هذا الشأن لدي سلطنة الكَجرات سواء عند سلطانها أو علمائها، وقد رد السلطان "مظفر شاه" علي محاولة الاتصال هذه برد قاطع بأن أمر بقتل الداعي الشيعي "ملا راجا صاحب جمال الدين" بعد سفر "ميرزا إبراهيم خان"، فقد ذكرت مصادر البهرة تاريخ مقتله سنة 924هـ / 1518م، أي بعد رحيل السفارة الصفوية بفترة قصيرة.

---

(1) قطب الدين سليمان جي برهانبوري (ت1241هـ / 1826م) : منتزع الأخبار في أخبار الدعاة الخيار (من الداعي الذؤيب بن موسي الوادعي إلي الداعي داؤد جي بن قطب شاه) ، ص159، تحقيق سامر فاروق طرابلسي، دار الغرب الإسلامي.

Misra , Satish c. ,Muslim Community in Gujarat,P22,23.

أما عن وقع هذه السفارة علي عامة مسلمي الكَجرات فلم تقابل بالترحاب لأن الصفويين من الشيعة الاثنى عشرية، أما مسلمو الكَجرات فغالبهم من أهل السنة وهو المذهب الرسمي لسلطنة الكَجرات، ومما يدل علي ذلك ما حدث نتيجة اختلاف أحد أتباع "ميرزا إبراهيم خان" مع أحد أتباع سلطان "شاهزاده محمد" سلطان مالوه المخلوع اللاجئ إلي بلاط السلطان "مظفر شاه[1]".

وقد نتج عن هذا الأمر أن سرت إشاعة كاذبة في المدينة أن أوامر السلطان قد صدرت بعقاب كل أتباع "ميرزا إبراهيم خان" من القزبلاش لأسره "شاهزاده" في قصره، فقامت عامة مدينة "محمد آباد" بالهجوم علي باب القصر المقيم به القزبلاشيين الذين تجمعوا للدفاع عن أنفسهم، ولكن العامة فتحت الباب عنوة واشتبكوا في القتال مع القزبلاشيين الذين جرح منهم عدد كبير واحترق القصر، وعندما وصلت هذه الأخبار إلي السلطان عين "عماد الملك" للقضاء علي هذه الاضطرابات ولحماية القزبلاشيين، وقد استطاع "عماد الملك" السيطرة علي الموقف وعاقب مقتحمي القصر، وحمل "ميرزا إبراهيم خان" مصاباً إلي جناح حريم السلطان حيث أشرف السلطان بنفسه علي العناية به، وقد اشتكي إلي السلطان فقده ست لكات من التنكات من العملة الكَجراتية، فعوضه السلطان بدفع المبلغ إليه من خزانته الخاصة[2].

وعند مغادرة "ميرزا إبراهيم خان" للكَجرات في يوم الجمعة الرابع عشر من رمضان أنعم عليه السلطان بلكة أخري من التانكات، كما خلع عليه خلعاً قيمة، وقد زاد السلطان في

(1) سبب الخلاف هو رغبة "ميرزا إبراهيم خان" في الحصول علي جوهرة ثمينة كانت لدي "شاهزاده" الذي طلب فيها مبالغاً عالياً، وقد تطور الأمر عندما ذهاب "شاهزاده. الذي كان شاباً صغيراً تنقصه الخبرة. إلي أحد أصدقائه القاطن في نفس القصر الذي يقطنه "ميرزا إبراهيم خان" وأتباعه،وقد نقل بعض المفترين إلي "ميرزا إبراهيم خان" أن "شاهزاده" قدم إلي هنا بنيه الاشتباك معه في قتال،ونصحه بحبس "شاهزاده"- - في الحال علي أن يخبروا السلطان في اليوم التالي ، وقد أعقب هذا أن قبض "ميرزا إبراهيم خان" علي "شاهزاده" ولكنه استطاع الهرب.

Bayley: The Local Muhammadan Dynasties, Gujarat, p246.

(2) ملا عبد القادر نهاوندي: مآثر رحيمي، ص152. الهروي: طبقات أكبري، ج3، ص243.

Bayley: The Local Muhammadan Dynasties, Gujarat, p246.

إنعامه عليه لتعويضه عما لاقاه هو وأتباعه في هذه الحادثة، وأرفق معه هدايا قيمة إلي الشاه "إسماعيل الصفوي"، ومن أهم ما اشتملت عليه سبعة أفيال ضخمة وبعض الخيول العربية المدرعة وذئب وعدد من الحيوانات والطيور النادرة، وأمر بتجهيز سفينتين عظيمتين لحمل "ميرزا إبراهيم خان" وأتباعه إلي "إيران، كما أمر بتزويدهم بكل ما يحتاجونه أثناء الرحلة، وأمر "خراسان خان" بمرافقتهم لحمايتهم[1]، وبذلك عادت السفارة الصفوية بدون أن تحقق أهدافها في نشر المذهب الإثنا عشري في الكَجرات. ومن هذا يتضح لنا العلاقات المتعددة التي دخلت فيها سلطنة الكَجرات مع القوي السياسية المعاصرة لها من البرتغاليين والمماليك والعثمانيين والصفويين وغيرها.

(1) Bayley: OP.Cit, p246, 247.